الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

شركة دار النحوي
للنشر والتوزيع المحدودة

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر

الدكتور عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

شركة دار النحوي
للنشر والتوزيع المحدودة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي، عدنان علي رضا
الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر./ عدنان علي
رضا النحوي - الرياض، ١٤٣٣هـ
١٤٤ ص ١٧ X ٢٤ سم
ردمك : ٧ - ٠٩ -٨٠٧٢-٦٠٣-٩٧٨
١- الصبر ٢- البلاء ٣- الوعظ والإرشاد أ-العنوان
ديوي ٢١٢,٢ ١٤٣٣/٣٠١٨

رقم الإيداع : ١٤٣٣/٣٠١٨
ردمك : ٧ - ٠٩ -٨٠٧٢-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



شركة دار النحوي للنشر والتوزيع المحدودة
هاتف ٤٩٢٤٣٣٩- فاكس ٤٩٣٤٨٤٢
الموقع الإلكتروني : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : daralnahwi@hotmail.com
ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية



موقع
" لقاء المؤمنين"
على الشبكة الدولية للمعلومات
www.alnahwi.com
يهدف هذه الموقع إلى المساهمة مع المواقع الإسلامية
الأخرى وجهود العاملين إلى بناء الجيل المؤمن وبناء
الأمة المسلمة الواحدة التي تكون فيها:
كلمة الله هي العليا
نأمل التلطف بزيارة هذا الموقع وإبداء ملاحظاتكم
ونصائحكم على البريد الإلكتروني:
daralnahwi@hotmail.com
كما يسرنا دعوة إخوانكم وأصدقائكم لزيارة الموقع.



الإهداء

إلى المؤمنين المتَّقين الصادقين لينهضوا إلى ما أمرهم به الله سبحانه وتعالى ، عسى أن يتنزّل نصره وتأييده .

وإلى الغافلين ليفيقوا من غفوتهم قبل أن ينزل عقاب من الله شديد .



الافتتاح

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨]

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام :١٦١-١٦٣]



كلمات مضيئة

للدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

تمهيد وتوضيح

لـِ : « كلماتٌ مضيئة »

أضعِ في أول كلِّ كتابٍ أُصدره هذه المجموعة من « **كلمات مضيئة** »، وسبب ذلك أَنَّ هذه الكلمات تُمثِّل قواعدَ رئيسةً في الفكر الإسلامي ، والفقه ، والتربية الإسلامية، والدعوة الإسلامية ، وسائر ميادين ممارسة منهاج الله في الواقع، وبذلك فهي تمثل جزءاً هاماً **من نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ومناهجها.** ومن ناحية أخرى فإن هذه القواعد غائبة عن ميدان الممارسة الإيمانية في واقع المسلمين، مما أصبح من الواجب التذكير بها والإلحاح بها، لتصل إلى أكبر عدد من القرّاء ، عسى أن تذكِّر وتنصح وتثير الرغبة في التأمل والتفكير ، والانطلاق إلى محاسبة النفس ، والتغيير ، والدعوة والبلاغ .

ولو وضعناها في كتاب واحد فقط من كتبنا لغاب الهدف المرجوُّ ، وغابت الناحية التربوية التي نهدف إليها بالتذكير على أوسع نطاق ممكن ، وانقطعت فائدتها مع الأيام .

إن هذه القواعد في «**كلمات مضيئة**» تحتاج إِلى تجديد التذكير بها بين حين وآخر لما لها من أهمية كبيرة ، وحاجة ملحّة في واقعنا اليوم ، وبناء واقعنا غداً إِن شاء الله .

وأخيراً فإن هذه «الكلمات المضيئة» وما تحمله من قواعد ، نابعةٌ كلها من أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله ، ومن مدرسة النبوّة الخاتمة، ومن وعي الواقع من خلال منهاج الله .

* * *

كلمات مضيئة

للدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي

بناء الإنسان

إنّ بناء عمارة مهما عظمت يَسهل إذا قِيسَ ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الرباني وفق التوجيه النبوي . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيون ، أما بناء الإنسان وإعداده وتدريبه فهي مهمة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين خُتِموا بمحمد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن ، على أساس من المنهاج الربّاني - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - .

* * *

حقُّ التعاون بين المؤمنين ووجوبه

يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا أن نختلف فيه ، ليكون التعاون أو الاختلاف خاضعاً لأمر الله وشرعه ، لا لاجتهاداتنا وأهوائنا ، ونختلف بهذا النصّ مع من يقول : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

* * *

خافوا على أنفسكم

أيها الناس ! أيها المسلمون ! أيها الدعاة ! كما تُظهِرون الخوف على الإسلام ، مع أَنَّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معه ، فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله ، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نصرتم الله كما أمركم ،

وتجنبْتُم الفتن التي نهاكم عنها ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا؟! خافوا على أنفسكم كما تخافون على الإسلام .

* * *

إذا غاب النهج والتخطيط

إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الرّباني في واقع أي أمّة، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضجّ بها ، ولا تجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخُطا، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثمّ الخدر يسري في العروق ، ثمّ الشلل ، ثم الاستسلام ! ثم تكون النهاية.

* * *

فريقان :
فريق له نهجه وخطته ، وفريق لا نهج له ولا خطة

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لا نهج له ولا خطة إلا الشعارات يُدوّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .

* * *

الأهداف الربانية وتحقيقها

إن الأهداف الربانيّة لا يمكن تحقيقها إلا بجنود ربّانيين ، ووسائل وأساليب ربانية. وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد ربّاني .

* * *

العاجز

من عَجَزَ عن إِصلاح نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره أو إصلاح المجتمع . كم من الذين ينادون بالإصلاح والتغيير هم أحوج الناس إلى الإصلاح .

* * *

تَقبُّل النصيحة

من سدَّ أُذنيه عن النصيحة فَقَدَ فرصة عظيمة لمعرفة أخطائه ، وفرصة أعظم لمعرفة سبيل الإصلاح والعلاج ، وتعرَّض أكثر للمتاهة والضلال .

* * *

إتباع الحقِّ لا الهوى

إِن الهوى لا يُصْلحُ بل يُفْسِد ويُدَمِّر ، وإن اتِّباع الحقِّ هو سبيل الإصلاح للفرد والأسرة والجماعة والأمة ، وكذلك للبشريَّة كلها .

* * *

من صدقَ الله نجا

بين الحق والهوى باب ابتلاء وتمحيص . من صَدَقَ الله نجا ودخل إلى الحق ، ومن ضلَّ هلك ودخل إلى الهوى .

* * *

تكامل الإسلام
وتكامل الدعوة إليه

ليس من الحكمة أن نكتفي بإعلان مبادئ الرحمة والعفو والتسامح والسلام في الإسلام، حين يكون مثل هذا الإعلان مظهراً من مظاهر الضعف والهوان والاستسلام أو يوحي به. ولكن الحكمة والواجب أن نُظْهِرَ تكامل الإسلام من عفو وتسامح ، ومن عقوبة وحزم ، ومن سلام وحرب ، ومن حكمة وتشريع ، ومن إيمان وتوحيد . فالإسلام لا يتجزأ بل هو دين شامل كامل لكل أمور الحياة الدنيوية والأخروية .

* * *

أين تبتدئ المعركة

إن المعركة مع أعداء الله تبتدئ أولاً في نفسك أيها الداعية المسلم ، فإن انتصرت فيها، فيمكن الانتقال إلى جولة بعد جولة ! وإن هُزِمْتَ بها فستُهزَم في سائر المعارك! وتظل هذه المعركة ممتدة مع المسلم حياته كلها حتى يلقى الله .

* * *

الحَيْدُ عن الصراط المستقيم

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل صراطه الحقَّ مستَقيماً وواضحاً ، حتى لا يضِلَّ عنه أحد. وجعله سبيلاً واحداً حتى لا يُختَلَف عليه . وجعله صراطاً مستقيماً واحداً ليجمع المؤمنين أمّة واحدةً وصفاً كالبنيان المرصوص. فلماذا تاه المسلمون عنه فتفرقّوا ، واختلفوا عليه فتمزَّقوا ، ثم ضَعُفوا وهانوا ؟!

عن أبي الدرداء قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال:

« آلفقر تخافون ؟ والذي نفسي بيده لتُصَبَّن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغكم بعدي إِنْ أزاغكم إلا هي » ، وأيم الله ، لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء.

[ابن ماجه : المقدمة . أحمد : المسند ٤/ ١٢٦ ، الفتح الرباني :١٩/ ٣١٣]

* * *

حتى يفيقوا أو يهلكوا

وكلَّما توانى المؤمنون عن الوفاء بالعهد والتزام الحقِّ والدعوة الصافية في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص ، أنزل الله بهم البلاء والعقاب والعذاب ، حتى يستيقظوا أو يهلكوا. وقد يكون من العقاب تسلط الأعداء .

* * *

أخوة الإيمان
عاطفة ومسؤوليات

إنَّ أُخوّة الإيمان ليست عاطفة فحسب ، ولكنَّها مسؤوليات وواجبات ، وحقوق والتزامات ، لا تسقط حتى لو تغيَّرت العاطفة . إنَّها رابطة المؤمنين في الأرض جميعاً، رابطة يجب الوفاء بها . إنها رابطة ربَّانيّة أمر الله بها المؤمنين جميعاً ، حتّى يكون الولاء الأوّل لله ، والعهد الأوّل مع الله ، والحب الأكبر لله ورسوله . وبغير ذلك لا تتحقّق أخوة الإيمان .

* * *

لو حقق المسلمون
أخوّة الإيمان في واقعهم

لو أنَّ المسلمين حققوا في واقعهم « أُخوة الإيمان » كما أمر بها الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ لأنزل الله نصره عليهم ، ولسادوا العالم ! ولأعزّ الله الجميع ! كما حدث في صدر الإسلام .

* * *

أخوة الإيمان
والولاء الأول لله
والعهد الأول مع الله وحده
والحبّ الأكبر لله ولرسوله

لا تَصْدُق أخوّةُ الإيمان في ميدان الممارسة والتطبيق إِلاّ إذا كان الولاء الأول لله وحده دون شرك ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر لله ولرسوله ، ثمَّ يَنبع كلُّ ولاء وعهد وحبٍّ في الحياة الدنيا من الولاء الأوّل والعهد الأول والحبّ الأكبر .

* * *

كلمة المؤمن
صادقة طيبة

كلمة المؤمن طيّبة ، قويّة، واعية ، لا تنحرف عن الصراط المستقيم . إنها بَرَكَةٌ للناس، ونورٌ في الحياة ، وسلاح في الميدان . وهي أساس حرّيّة الرأي ، وأساس النصيحة ، وقاعدة الشورى متى ما أدركها الإنسان المؤمن عاش في ظلها تقياً نقياً سعيداً .

* * *

الخلل فينا والأخطاء منَّا

لا يختلف مؤمنان في أنّ كلّ ما يجري في الكون والحياة، من أمر صغير أو كبير، هو بقضاء الله وقدره: قضاءً نافذاً، وقدراً غالباً، وحكمةً بالغةً، وحقاً لا ظلم معه أبداً. ومن هنا وجب علينا شرعاً أن ننظر في أنفسنا، في واقعنا، فالخلل فينا، والأخطاء منا، والتقصير جليٌّ كبير !.

* * *

أيها المسلم ! إنك مسؤول ومحاسَب !

إنك مسؤول أيها المسلم !، وإنك محاسَب. ولا يغرَّنَّك أن تقول لنفسك: إنَّ المسؤولين هم العلماء والدعاة وحدهم. نعم إنهم مسؤولون ومحاسَبون، وإنك مسؤول ومحاسب. ولا تنفع الندامة والحسرة يوم القيامة ! فانهض إلى مسؤوليَّتك أيها المسلم. قبل فوات الأوان.

* * *

منهاج الله ودراسته وتدبّره وممارسته في واقع الحياة

أيها المسلم ! لا تكن كالميت بهجرك دراسة منهاج الله وتدبّره وممارسته في واقع الحياة، فاطلب الحياة والنور، والهداية والفلاح بذلك، والقاعدة لذلك:

- أن تكون دراسة منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ منهجيّة يوميّاً.
- وأن تكون صحبة عمر وحياة لا تتوقف أبداً، حتى يلقى المسلم ربّه !
- أن يتدرَّب المسلم على رد الواقع بأحداثه وأفكاره إلى منهاج الله ردّاً أميناً، ليصاحب ذلك دراسة منهاج الله.

* * *

التَزِمْ النَّهج الإيماني للتفكير

أخي الكريم ! أيها المسلم ! إن الله سبحانه وتعالى خلقنا على فطرة سليمة ، ووهبنا القدرة على التفكير ، فأول ما نطلبه ونوصي به هو أن نُفكّر ، أن نفكر التفكير الإيماني، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتفكير على نهجٍ إيمانيٍّ ونور وهداية بآيات كثيرة في القرآن الكريم .

* * *

الفقه في الإسلام

الفقه في الإسلام يقوم على ركنين : المنهاج الرباني ـ قرآنا وسنة ولغة عربيّة ـ والواقع. فلا يوجد فقه خاص يسمى « **فقه الواقع** » ، فالفقه كله قائم على الواقع والمنهاج الرباني على مرور الزمان واختلاف المكان فهو مواكب لكل تغيرات الحياة.

* * *

الفقه وامتداده وحدوده

كل مسلم مكلّف أن يجتهد فيما هو ضمن مسؤوليته الشرعية وحدود اختصاصه ووسعه وعلمه ، مما سيحاسَب هو عليه يوم القيامة ، دون أن تتعطل الاستعانة بإمكانات المجتمع ، أو الشورى ، على أن يهيئ المسلم نفسه للمسؤوليات المكلَّف بها ، ويتزوّد لها بالزاد الحق ، ويكون ذلك مرجعه الكتاب والسنة وأقوال العلماء الربانيين .

* * *

المسؤوليّة والفقه

لا فقه دون وفاء بالمسؤولية ، ولا وفاء بالمسؤولية دون فقه.

* * *

كل مسلم مسؤول ومكلف ومحاسب ، وطلب العلم من الكتاب والسنة واللغة العربية فرض على كل مسلم لحديث الرسول ﷺ :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم» [أخرجه الطبراني وغيره][1]

* * *

العصبيات الجاهلية والدعوة الإسلامية

إن العصبيات الجاهلية التي حرّمها الإسلام عقبة كبيرة أمام قيام الدعوة الإسلامية الواحدة في الأرض . وإن هذه العصبيات الجاهلية ثمرةُ تمكُّنِ الأَهواء والمصالح المادية الدنيوية في النفوس ، بعيداً عن تصور الدار الآخرة . ومن أخطر أشكال هذه العصبيات الجاهلية ما يلي :

- عصبية الإنسان لنفسه وهواه على غير حق ودعماً للباطل !
- العصبية العائلية على غير حق ودعماً للباطل ! إذا كانت تحصره في بوتقتها ومجالها الضيق .
- العصبية الحزبيّة التي يفسد فيها الولاء وتتمزّق بها الأمة .
- العصبية الوطنية والإقليمية والقومية على غير حق ودعماً للباطل .

* * *

من أسس الإيمان والتوحيد

إن من أسس الإيمان والتوحيد التبرُّؤ من العصبيات الجاهلية كلها ، ليكون الولاء الأول لله وحده ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر هو لله ورسوله ، لينبع كل

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : (٢٩١٣) .

ولاء وموالاة في الدنيا من الولاء الأول لله ، وكل عهد في الدنيا من العهد الأول مع الله ، وكل حبّ في الدنيا من الحبّ الأكبر لله ورسوله . فتقوم بذلك أخوة الإيمان، وتقوم الأمة المسلمة الواحدة ، وتقوم الدعوة الإسلامية الواحدة في الأرض.

* * *

الدعوة الإسلامية واحدة

إن الله سبحانه وتعالى واحد ، وإن الدين عند الله واحد هو الإسلام ، وإن أمّة الإسلام واحدة ، فيجب أن تكون الدعوة الإسلامية في الأرض واحدة ، على نهج واحد، ومنهج رئيس واحد، وأهداف ربانيّة مُحدَّدة واحدة، فالإسلام وسع البشرية كلها . لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

* * *

منهج
الدعوة الإسلامية الواحدة ونهجها

يجب أن تكون الدعوة الإسلامية في الأرض واحدة ، ويجب أن يكون لها منهج تفصيلي تطبيقي واحد ، ونهج على الصراط المستقيم واحد . ويجب أن ينبع المنهج والنهج من : أسس الإيمان والتوحيد ، ومن منهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربية–، ومن مدرسة النبيّ الخاتم محمد ﷺ ، ومن وعي الواقع بعد ردّه إلى منهاج الله ، ليُلَبّي حاجة الواقع الذي يمرّ به المسلمون، وبذلك يصبح للدعوة الإسلامية الواحدة أهداف ربانيّة واحدة، تحملها أمة مسلمة واحدة، هي خير أمّة أُخرجِت للناس، لتكون صفًّا واحداً كالبنيان المرصوص .

* * *

نهج
مدرسة لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

ونظرياتها العامة ومناهجها التطبيقية ونماذجها
ووسائلها وأساليبها ودراساتها المفصلة
وأهدافها المحدّدة ونظامها الإداري

إننا نقدم نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل بكامل أجزائه المترابطة ليكون أساس لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن ، نابعاً من المصادر الأربعة : أسس الإيمان والتوحيد، منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربيّة - ومدرسة النبوّة الخاتمة مدرسة محمد ﷺ ، ومن وعي الواقع بعد ردّه إلى منهاج الله ليلبّي حاجة الواقع .

* * *

جوهر
الدعوة الإسلامية الواحدة

إن جوهر الدعوة الإسلامية الواحدة هو تبليغ رسالة الله إلى الناس كافّة ، كما أُنزِلَتْ على محمد ﷺ وتعهّدهم عليها تبليغاً وتعهُّداً منهجيّين ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

* * *

تبليغ الدعوة كما أنزلت من عند الله
فرضٌ على المسلمين
وتكليف من عند الله

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف :١٠٨]

* * *

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

[النحل :١٢٥]

* * *

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت :٣٣]

* * *

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [الأحزاب :٣٩]

* * *

﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً . إِلا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾

[الجن :٢٢،٢٣]

* * *

﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾

[الجن :٢٨]

* * *

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[إبراهيم :٥٢]

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة :٦٧]

* * *

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس : ١٧]

* * *

وفي الأحاديث الشريفة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال :

(بلّغوا عنّي ولو آية ....)(١)

* * *

(١) رواه أحمد : المسند ٢/ ١٥٩،٢٠٢،٢١٤ ، الفتح : ١/ ١٧٧ ، الترمذي : ٤٢/ ١٣/ ٢٦٦٩ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم : (٢٨٣٧) .

المسؤولية
عن تبليغ هذه الدعوة

إنها مسؤولية المسلمين جميعاً ، كلٌّ قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسَب عليه يوم القيامة ، بعد أَن يتزوَّد بالزاد الرئيس الضروري : من صفاء الإيمان، وصدق العلم بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله.

* * *

أيها المسلم ! انهض وتزوّدْ بالزاد الحق ، وانزلْ ميدان الدعوة في صف واحد كالبنيان المرصوص ، وبلِّغْ رسالة ربك كما أُنزلت على محمد ﷺ إلى الناس كافة وتعهَّدْهُمْ عليها، وساهِمْ في بناء لقاء المؤمنين والجيل المؤمن ، ومن ثمّ بناء الأمة المسلمة الواحدة ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض ، وسوف تجد أثر ذلك على نفسك وولدك وحياتك كلها وسوف تجد السعادة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

* * *

المقـــدمة

أقدم هذا الكتاب : « **الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر** » ، في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين ، حيث وضح أن المسلمين يعانون من التمزق ، ومن العصبيات الجاهلية ، ومن غياب رابطة أخوة الإيمان ، وغير ذلك مما عددناه في كثير من كتبنا التي كتبت لتكون جزءاً من « **نهج مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن** »، المدرسة المنهجيّة التي تحمل النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، والتي تحمل التكاليف المنهجية المترابطة ، والتدريب والإعداد ، والنظام الإداري ، والدراسات التربوية والدعوية والأدبية والإدارية ... الخ . إنها المدرسة المنهجية التي نرجو أن تكون أساساً للقاء المؤمنين وبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، التزاماً بما يأمر به الله ورسوله، وبما نصّ عليه الكتاب والسنّة !

إنها ليست دعوة حزبيّة ، ولا هي عمل سرّيّ ، ولكنها نداء وتذكير بأمر الله ، تذكير مبنيٌّ على أسس الإيمان والتوحيد ، وعلى منهاج الله ، وعلى مدرسة النبوّة الخاتمة ، وعلى وعي الواقع من خلال منهاج الله .

إن من أكثر ما يثير الدهشة والألم في النفس كيف أن الآيات البيّنات الصريحة في كتاب الله لا تهزّ الدعاة المنتسبين إلى الإسلام اليوم هزّاً عنيفاً على خشية ورهبة من الله سبحانه وتعالى . وحسبنا أن نذكر هنا ببعض الآيات البيّنات في كتاب الله التي تصور خطورة التمزّق والتفرّق :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥]

وكذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام :١٥٩]

وكذلك :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ

وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٠-٣٢]

وكذلك :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران :١٠٣]

وآيات أخرى كثيرة ، تبين أن نتيجة التفرّق هو عذاب عظيم من عند الله ، وليس نصراً يحلم به المتنازعون المتنافسون .

إن واقع المسلمين اليوم ، بالإضافة لصور التمزّق التي يعاني منها ، فهناك أمر آخر لا يقل خطورة عن التمزق ، ألا وهو الانحراف الشديد عن الكتاب والسنة ، الانحراف الذي أخذ يشتد في معظم أنحاء العالم الإسلامي ، وكثرة الفتاوى المتناقضة التي لا تحمل علماً ولا حجة من كتاب ولا سنة ، والجهر بمخالفة أصول الإسلام من دعاة يدوّي صوتهم في الأرض ، وخفت صوت الإسلام الحق ، ودوّى صوت الديمقراطية وما تبعها من انحرافات وفساد ، وأخذ ينادي بها وبالعلمانية والحداثة بعض الدعاة بدلاً من أن يدعوا إلى دين الله الحق ، إما خوفاً من سلطان ، أو رغبة في زخرف من زخارف الدنيا ومتعها .

إن الله ناصر دينه ، عاجلاً أو أجلاً ، على قضاء لله نافذ وقدر غالب وحكمة بالغة، ولكنها سنة الله الثابتة في الحياة الدنيا : الابتلاء والتمحيص !

فلينهض المؤمنون الصادقون بصوت صادق يدعون إلى لقاء المؤمنين أمة واحدة ، فإذا لم تقم في الأرض هذه الأمة الواحدة ، فإن نصر الله لا يتنزّل :

إن لم تَقُمْ في الأرضِ أُمَّةُ أحمدٍ　　　فكل الذي يجري على الساح ضائع

الرياض

٨ ربيع الأول ١٤٣٣هـ

٢٠١٢/١/٣١م

الدكتور عدنان علي رضا محمد النحوي



البـاب الأول

الدرس الرئيس في الدعوة الإسلامية

- تمهيد .
- الفصل الأول : الدرس الرئيس في الدعوة الإسلامية .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يموج واقع المسلمين اليوم بالفتاوى المتناقضة والأحزاب المتصارعة والمواقف المتبدّلة ، كما أصبح هنالك صوت في داخل الساحات الإسلامية يعلو فوق صوت الإسلام ، وأصوات تعلو وتخفت مناهضة للإسلام ، أهمها : الديمقراطية التي أصبحت على لسان معظم الدعاة والحركات الإسلامية ، والعلمانية والحداثة وما يتبع ذلك .

ما يسمى بالربيع العربي ميدان واسع للتحليل والدراسة ، وقد تختلف الآراء بخصوصها ، ولكن الذي لا خلاف فيه أبداً أن هذه الثورات حتى هذه اللحظة أورثت خسائر فادحة لكل بلد مرّ بها الربيع ، وأورثت دماراً واسعاً في بعضها ، مما يحتاج إلى مبالغ هائلة لإعادة إعمارها ، وأورثت امتداد سلطان الغرب العلماني النصراني الصهيوني إلى قلب تلك البلاد أو كلها ، وبرزت الخلافات والصراع بين فئات مختلفة ، خلافاً ظاهراً أو مستوراً إلى حين .

ومن خلال هذا الربيع علا صوت الغرب العلماني وديمقراطيته ، برزت التبعية بصورة جليّة . أصبحت كلمة الديمقراطية على لسان معظم الدعاة كمطلب أساسي ، وخفت صوت الإسلام الذي اشتهر هؤلاء الدعاة به وعرفوا به ، ثم استبدلوا شعاراً بشعار وراية براية ، ورأياً برأي ، ويظل هذا كله عند الضرورة يمرّ من خلال شعار يظهر ويختفي ، ألا وهو الإسلام .

لو أخذنا مواقف بعض الدعاة المنتسبين إلى الإسلام ، ورددناها إلى الكتاب والسنة، لوجدنا الانحراف واسعاً والفتنة كبيرة ، حتى كأن الإسلام الحق الذي جاء من عند الله لم يعد يضبط الرأي المتفلّت ، ولا الكلمة الطائرة ، ولا الشعار الهائج .

كل ذلك يطرح أمامنا سؤالاً رئيساً : هل الدعاة المنتسبون إلى الإسلام يُرجِعون آراءهم وشعاراتهم ومواقفهم إلى منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ ؟! هل هم ينضبطون في مواقفهم بالأسس الإيمانية الربانيّة الثابتة بالكتاب والسنة ؟! هل هم

ازدادوا إيماناً ويقيناً بالله ودينه بكثرة التجارب والأحداث ، أم أنهم أخذوا يميلون إلى مسايرة الأعداء في بعض المواقف وبعض القضايا الفكرية ؟!

ماذا تقول في من يعلِن بصوت مدوٍّ : لا تقولوا عنا « إسلاميون نحن علمانيون » ! ومن يحمل أكاليل الزهور ليضعها على قبر مصطفى كمال أتاتورك ؟!

ومع أن هذا تم بصورة علنيّة واضحة ، فإنه لم يولّد نصحاً أو اعتراضاً أو توجيهاً، فالدين النصيحة ! وتلقّى الرأي العام الإِسلامي هذا الموقف وأمثاله بصمت أشبه بالموت، أو بغياب وغيبوبة إلا ما ندر .

هذا مثل واحد فقط ، والواقع الإسلامي يقدّم لنا أمثلة أخرى متعددة ، تفرض على المسلم التوقّفَ عندها وردَّها إلى منهاج الله ، وتقديم النصيحة الإيمانية التي يأمر بها الله ورسوله .

ولقد سبق أن عرضت هذه القضية في بعض كتبي السابقة وقدّمت النصيحة كتابة ، وقدمتها مشافهة ، وبكل أسلوب يسمح به الإسلام . ولكنّ موجة التغريب آخذة بالازدياد ، والتحولات أيضاً آخذة بالازدياد ، واختراق أعداء الله لديار المسلمين آخذ بالازدياد أيضاً .

ربما تكون حجة من ينحرف مثل هذا الانحراف أنه لا بأس بالمجاملة مرحلياً والسير مع الغرب فكراً وسياسة مرحلياً ، حتى يتسلم « الموهومون » الحكم أو أي سبب من أسباب القوة ، ثم يبدأون بعد ذلك بتطبيق الإسلام ! إنها فتنة كبيرة واسعة ، تفرض وجوب الوقوف عندها ، لنرى ما يسمح به الإسلام وما لا يسمح .

ونحاول أن نستعرض مواقف الرسل عليهم السلام ، وموقف الرسول محمد ﷺ ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومواقف الصحابة الأبرار ، والصادقين على مرّ التاريخ ، لنرى كيف كانوا يجابهون الإيذاء والعدوان والظلم بشتّى أنواعه ، عسى أن نأخذ من ذلك دروساً صادقة تنفعنا في واقعنا اليوم ، وفيما يمكن أن نصدره من فتاوى وآراء ومواقف ، وفيما يجب على الدعاة من ثبات على الحق المنزل من عند الله ، وعدم التنازل أو المساومة ، او التحريف ، ومن وجوب ردّ الأمور كلها إلى منهاج الله ـ قرآناً

وسنة ولغة عربية ـ ردّاً أميناً نابعاً من حقيقة الخشية من الله ، ورجاء الدار الآخرة ، ونابعاً من صدق العلم بمنهاج الله وردّ الواقع إليه . هذه قواعد أساسية في الإسلام ثابتة بالنصوص الربانية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

الدرس الرئيس في الدعوة الإسلامية

لا شك أن المسلمين اليومَ بعامة ضُعَفاء ، لا يملكون من أسباب القوّة، ما يسمح لهم بِصَدّ العدوّ بالحرب أو المجاهرة بالعداء ، ولكن الإسلام ليس مجرّد حرب أو عداء . إنه دعوة ورسالة ربّانية ، حملتها الرسل في فترة زمنية طويلة ، حتى ختموا بمحمد ﷺ.

ولقد مرّ جميع الرسل أو معظمهم بما نمرُّ به نحن اليوم ، ولاقوا من أنواع العذاب والابتلاء الشيء الكثير ، ولكن مواقفهم كانت ملتزمة بالرسالة التي يحملونها ويدعون الناس إليها . ولو خالف أحدهم هذا النهج لا بتلاه الله سبحانه وتعالى ببلاء من عنده ، كما حدث مع يونس عليه السلام ، الرسول الذي بلّغ ودعا ثم يئس من قومه فتركهم ، فألقاه الله في جوف الحوت عقاباً له ، حتى تاب واستغفر وأناب ، فغفر الله له، ونجاه فقذفه الحوت من جوفه ، وعاد إلى الدعوة والبلاغ ، فآمن معه الكثيرون :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٣٩-١٤٨]

إذن نتعلم من هذه الآيات الكريمة الدرس الرئيس الأول في الدعوة الإسلامية، الدرس الذي نجده ماضيا مع جميع المرسلين ، ومع خاتم المرسلين ، ومع الصادقين الثابتين من الدعاة المؤمنين .

هذا الدرس الرئيس هو أن الدعوة الإسلامية هي أولاً دعوة ربانية ، دعوة تبليغ لرسالة الله ، وتعهُّد للناس عليها ، حتى تُنقِذَ الناسَ من عذاب جهنم إذا ماتوا على غيرِ دين الله ، دين الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين [١] .

(١) يراجع كتاب : « إن الدين عند الله الإسلام - دين جميع الأنبياء والرسل» وكتاب « إشراقة الإيمان والتوحيد » للمؤلف .

إذن هذه النظرة الربانية يجب أن يشعر بها الناس وبحقيقتها وبجدّيتها ، حتى يعرفوا ما هو الإسلام وماذا يريد . لا يبدأ الإسلام بالعداء والحرب والقتال ، ولا بالعداء والكراهية ، على أساس أن هذه النظرة الرئيسة للإسلام تفتح له الساحات كلها، فإذا أغلقت ساحة أو ابتدأ الآخرون بالعداء ، فعندئذ يردّ الإسلام على ذلك بالجهاد في سبيل الله ، كذلك لإنقاذ الناس من عذاب جهنم .

ليست نظرة الإسلام إلى واقع الحياة نظرة دنيوية تطلب الكسب الدنيوي ، وتقاتل من أجله وتسالم من أجله ، ولا تحبُّ من أجله ولا تكره من أجله ، كلُّ ما تطلبه من الدنيا هو جمع اسباب القوة كما أمر الله سبحانه وتعالى ، لتحافظ الدعوة على سلامتها وسلامة دربها ، ولحمايتها وحماية دربها ، ولتحافظ على معاشها في طاعة واعية لله ، وعلى ما كتب الله للناس من رزق حلال وسعي مبارك ، لا يُعطِّل نشاط التبليغ والتعهّد ، والتربية والبناء والإعداد ، والجهاد في سبيل الله .

ومن هذه الفطرة الربانية يؤثر المسلم والمسلمون الدار الآخرة على الدنيا إيثاراً ظاهراً في الجهد والنشاط والسعي ، والتبليغ والتعهّد ، والإعداد والتربية والبناء ، في موازنة امينة صادقة ، على صدق إيمان وتوحيد ، وصدق علم بمنهاج الله ، ووعي سليم للواقع من خلال منهاج الله :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[القصص :٧٧]

فلا يكون المسلم الأمين الصادق إلا في هدي الآية السابقة ، ولا يكون الكافر والمنافق إلا في فتنة الفساد في الأرض ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، والله أعلم بحال كلّ فريق ، وجميعهم سيقفون للحساب بين يدي العزيز الجبار :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم :٣]

من هذه النظرة للدعوة الإسلامية تنشأ حقيقة علاقة المسلمين بسائر شعوب الأرض ، وعلى أساسها يتمّ التعارف والتعاون ، ليكون ذلك التعاون والتعارف ميدان.

وهي كذلك اختبار وتمحيص للمؤمنين ، حتى يكون المتقون أكرمَ الناس عند الله، كما تبين لنا الآية الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات :١٣]

وإيثار الدار الآخرة على الدنيا لا يعني الزهد والانقطاع ، ولكنه يعني ممارسة منهاج الله . **قرآناً وسنةً ولغة عربية** . ممارسة إيمانيّة واعية شاملة في مختلف ميادين الحياة التي يطرقها . إن هذا الإيثار للدار الاخرة على الدنيا مَعْلَمٌ واضح لصفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله .

ومن أهم ما يبرز هذا الإيثار للدار الآخرة على الدنيا هو ثبات المؤمن عند الابتلاء ، وثباته في مواقفه في الحياة الدنيا ، مواقفه كلها ، حين لا يسقط أمام إغراء المال والشهرة ، أو ممالأة أعداء الله خوفاً أو طمعاً .

ولنتذكر حديث رسول الله ﷺ وهو يوجهنا الوجهة الصحيحة لإيثار الدار الآخرة على الدنيا :

فعن كعب بن مالك عن الرسول ﷺ قال : « **ما ذئبان جائعان ، أُرْسِلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** »

[أحمد والترمذي][1]

صراط مستقيم جليٌّ بيّنه الله لنا ، لنَمضيَ عليه بعزم وثبات دون انحراف بفتنة ولا إغراء من مال ولا هوى من شهوة ، ولا سعي وراء سمعة وشرف دنيوي ، تفسد إيمان المسلم وتدفعه إلى ضلال .

وإنا لنجد في سلوك جميع الأنبياء والرسل ، وفي مسيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ، وسيرة صحابته الصادقين ، دروساً من مواقفهم أمام الابتلاء ، والصبر على ما يلقون من إيذاء وعذاب ، دون أن يتنازلوا عن شيء من رسالتهم الربَّانية ـ رسالة الإسلام ودينه ، الدين الواحد عند الله ، وعند الأنبياء والمرسلين جميعاً .

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (٥٦٢٠) .

إن تنازل الدعاة عن شيء من دين الله أمام إغراء شهوة أو خوف من قوة معادية لله ولرسوله ، إن هذا التنازل لخطر كبير على مسيرة الدعوة الإسلامية مهما ظنّ المنحرفون أن التنازل يقيهم العذاب أو يوصلهم إلى قوة وسلطان . وعندما يصبر المؤمنون الدعاة على ما يمسّهم من ابتلاء ، فإن الله سبحانه وتعالى وعدهم بالنصر والنجاة في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .

إنّ الرسلَ والدعاةَ الصادقين لا يتنازلون عن أي شيء في رسالتهم ولا يساومون عليها ، وإنما يبلّغون الرسالة بلاغاً بيّناً قويّاً غنيّاً ، فالأمر جللٌ والقضية خطيرة ، بل هي أخطر قضية في حياة البشرية .

ونعرض في الفصول المقبلة نماذج من حياة الرسل عليهم السلام ، تكشف لنا ما عرضناه أعلاه ، ونماذج من حياة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، ونماذج من حياة الصحابة رضي الله عنهم . فهؤلاء هم القدوة التي أمرنا باتباعها .



الباب الثاني

وقفات مع سيرة الرسل عليهم السلام حول الثبات على الحق والصبر على الابتلاء

- الفصل الأول : مع سيرة نوح عليه السلام .
- الفصل الثاني : مع سيرة إبراهيم عليه السلام .
- الفصل الثالث : مع سيرة يوسف عليه السلام .
- الفصل الرابع : مع سيرة موسى عليه السلام .
- الفصل الخامس : مع سيرة رُسَلِ آخرين عليهم السلام .
- الفصل السادس : مع سيرة عيسى عليه السلام .

الفصل الأول

مع سيرة
نوح عليه السلام

وهذا نوح عليه السلام يحدثنا القرآن الكريم عنه ، وعن تبليغه لرسالة الله وعن ثبات مواقفه الواضحة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف :٥٩-٦٤]

وكذلك :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ . فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [يونس :٧١-٧٣]

وكذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ٢٥ـ٣١]

وكذلك :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا. وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا . مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح : ١ـ٢٨]

إنها صورة جليّة تكشف لنا حقيقة ما كان يدعو إليه نوح عليه السلام ، وما بذل من أجل ذلك ، وكم لاقى من قومه الكافرين من عناد وإيذاء وصدّ .

وهنا ، وبعد طول الجدال مع قومه ، الجدال الذي استمر سنين طويلةً ، يقول له قومه :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : ٣٢-٣٥]

وكانت هذه هي الكلمات الفاصلة لينقطع بعدها الجدال ، وتنكشف حقيقة قومه الكافرين ، الحقيقة التي يعلمها الله فيوحي إلى نوح بها ، وبعقابه الذي سينزله عليهم وبنجاة نوح ومن معه :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود :٣٦-٣٧]

ويمضي نوح عليه السلام ينفذ أمر ربه فيصنع الفلك كما أمره الله ، ويستهزئ به قومه ويسخرون منه . فيرد عليهم بصبر وثبات وهو مُوْقِنٌ بوعد ربه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٨-٣٩]

ويأتي وعد الله ويفور التنور ويحل العذاب على الكافرين ، وينجي الله نوحاً والذين آمنوا معه :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [هود : ٤٠-٤١]

هكذا كان يدعو نوح قومه بوضوح وجلاء ، يبلّغ رسالة ربه كما هي ، لا يساوم عليها ولا يتنازل ، ولا يغيّر ولا يبّدل . إنه يبلّغ رسالة الله كما أوحى الله بها إليه .

والناحية الهامة في هذا الثبات والصبر والبلاغ أنه لم يستغرق سنة أو سنتين ، أو خمس سنين او عشراً ، وإنما استغرق مئات السنين ، ونوح عليه السلام ثابت بإبلاغ رسالة ربه لا يبدّل ولا يتنازل ولا يساوم ، فجاءه النصر المؤزر من عند الله ، له ولمن معه، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . وهذا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت :١٤-١٥]

ولما اشتَّد الجدل بين نوح وقومه ، أنذروه وهددوه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١١٦-١٢٢]

من سيرة نوح عليه السلام نتعلّم دروساً أساسية رئيسة في الدعوة الإسلامية ، ظلت ممتدة مع جميع الرسل عليهم السلام ، وأكّدَتها سيرتهم جميعاً ، وبخاصة سيرة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ . وأهم هذه الدروس :

أولاً : الثبات على هذا الحق الذي جاء من عند الله ، دون تنازل ولا مساومة ولا تبديل أبداً . أمانة عالية في الوفاء بصدق التبليغ ، نابع كله من الإيمان الصادق واليقين، مع إيمان صافٍ وعلم صادق بمنهاج الله ، مع دراسة وتدبر لمنهاج الله صحبة عمر وحياة .

ثانياً : إن القضية الأولى في مسيرة الدعوة الإسلامية هي تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة ، الناس الذين كُلف الرسل بتبليغهم ، وتعهّدهم عليها ، حتى يكون التبليغ كاملاً أميناً صادقاً .

ثالثاً : الصبر على ما يتعرّضون له من ابتلاء وإيذاء ، صبراً يرجون به رحمة الله وعونه ونصره ، واللجوء إليه لا لسواه .

رابعاً : أن النصر من عند الله وحده : « ... **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** » وهو وعد من الله سبحانه وتعالى لرسله وأنبيائه وللمؤمنين الصادقين وعداً ماضياً أبد الدهر مع كل العصور : ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ [غافر :٥١] ، وكذلك : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور :٥٥]

هذه القضايا الأربع أساسية في الدعوة الإسلامية التي يجب أن تمتد مع الدهر كله لأنها دعـوة ربانيّة لا تحمل إلا رسالة الله سبحانه وتعـالى كمـا أُنزلت على المـرسلين وعلى محمد ﷺ، يتحمّلون مسؤولية تبليغها للناس كافّة تبليغاً منهجيّاً ، وتعهدهم عليها تعهداً منهجيّاً . إن الانحراف عن هذه المسؤولية أو التنازل عنها أو المساومة عليها نقضٌ للعهد وعدم وفاء بالأمانة التي وضعها الله في عنق الأمة المسلمة ، الأمة التي اختارها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس ، ما دامت تحمل الأمانة وتصدق الله بها ، وما دامت توفي بالعهد مع الله.

وقد امتد المـرسلون مع الزمن حتى ختموا بمحمد ﷺ . وقد أوحى الله إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى جميع المرسلين ليحملوا كلهم رسالة واحدة من عند الله الواحد الذي لا إله إلا هو :

﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾

[النساء :١٦٣-١٦٥]

لقد غرس الله سبحانه وتعالى الإيمان في فطرة خلقه ، في فطرة كل مولود ، وبث آياته البينات الدالة عليه في السماء والأرض وفي أنفسنا ، ثم بعث الرسل والأنبياء يدعون الناس ، ويبشرونهم وينذرونهم ، حتى لا يكون بعد ذلك حجة للناس على الله أبداً .

ولقد استعرضنا بعضاً من سيرة نوح عليه السلام ، لنرى أسس الدعوة الإسلامية التي يريد الله أن تَثْبُتَ في الأرض مع الرسل جميعاً .

الفصل الثاني

مع سيرة
إبراهيم عليه السلام

ونتأمل الآن سيرة إبراهيم عليه السلام ، لنرى القواعد الأساسية في دعوة الله ماضية مع إبراهيم عليه السلام كما مضت مع نوح عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ٧٤-٨٣]

هكذا نرى إبراهيم عليه السلام كيف يعرض الإيمان والتوحيد على والده ثم على قومه وهم يحاجونه ، ويكشف لهم الحق بالحجة القوية والبينة الناصعة . ومضى إبراهيم عليه السلام رسولاً داعياً لا يماري ولا يساوم ولا يتنازل حتى لو كان الأمر مع أقرب الناس إليه ، مع أبيه إذا بقي على الضلال :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١١٤]

وكذلك تلقى إبراهيم عليه السلام كلمات ربّه بإيمان ويقين وثبات :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة :١٢٤]

ويلجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه ليثبته ويثبت ابنه إسماعيل على هذا الدين الحق:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٧-١٣٢]

لجوء إلى الله سبحانه وتعالى واستعانة به وتوبة إليه. ثم ينقل الرسالة إلى بنيه ، وكذلك فعل يعقوب عليه السلام .

ومضى إبراهيم عليه السلام يبلّغ رسالة ربه . فها هو يخاطب أباه بهذه الرسالة وينكر عليه عبادة الأصنام . يخاطب أباه بالحجة والبيان الحق :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٢-٤٨]

ويعود إبراهيم يوجه خطابه إلى أبيه وقومه يبلغهم رسالة ربه وينهاهم عن الشرك والكفر بحزم وجلاء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾

[الأنبياء : ٥٢-٥٧]

بلاغ واضح وجادٌّ وحاسم . إنكار لتماثيلهم وإنكار لاتّباعهم آباءَهم على ضلال، ثم إنذار لهم بأنه سيحطم أصنامهم لأنها ركيزة للشرك والكفر بالله . ثم يبلّغهم الرسالة واضحة : «**قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**» ، وكذلك قال :«**بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**».

ولما رجع قومه ورأوا ما حدث لأصنامهم سألوا من فعل هذا ؟! قال الناس: سمعنا فتى يقال له إبراهيم . فدعوه وسألوه : «**قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ**» .

ذلك لأن حجة إبراهيم عليه السلام كانت واضحة قوية : «**... فاسألوهم إن كانوا ينطقون**» ولكن الفتنة العميقة في نفوسهم ردّتهم ثانية إلى الشرك وإلى الدفاع عن أصنامهم وباطلهم . فدار بينهم وبينه حوار :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء :٦٥-٦٧]

فوضح الخصام ، وثار القوم الكافرون يدافعون عن ضلالهم وفسادهم وفتنتهم كما هو الحال في كل عصر : « **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** » .

ولكن هذا التهديد الخطير لم يرهبْ إبراهيم ، ولم يثنه عن يقينه الحق ، فثبت متوكلاً على الله لاجئاً إليه . فنجاه الله برحمته وقوته التي تملك كل شيء : «**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ** ».

وهذه رحمة الله امتدت إلى أن وهبه الله ابنه اسماعيل غلاماً حليماً ، ثم رزقه إسحق ، ومضوا جميعهم يتابعون مسيرة الدعوة الإسلامية :

﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء :٧٣]

وقد بلّغ إبراهيم عليه السلام رسالة ربه إلى كل من يستطيع بلوغه ، إلى ابيه وبنيه وأقربائه والناس بعامة . وبلّغ رسالته إلى ابن أخيه « لوط» عليه السلام ، فآمن ومضى يحمل الرسالة كذلك بعد أن آتاه الله حكماً وعلماً :

﴿ **وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾

[الأنبياء :٧٤-٧٥]

ولقد نجى الله إبراهيم ولوطاً عليهما السلام ، كما نجى نوحاً من قبل ، وكما نجى سائر الأنبياء والمرسلين . وجعل النبوّة في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام :

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٦]

إن هذا الدين هو دين الله ، فالله هو الذي خلق الإنسان وجعل في فطرته الإيمان، وبثّ آياته البينات الدالة عليه في الكون كله ، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين . واستقرّت المسؤولية في النهاية على الأمة المسلمة التي كانت خيرَ أمة أُخْرِجَتْ للناس بما تأمر به بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، وتحمل بذلك رسالة الله أمانة وعهداً .

فلا يصلح لحملة هذه الرسالة اليوم ، لدعاة الإسلام اليوم ، إلا أن يجهروا بهذه

الرسالة وهذا الدين الحق كما أُنزل من عند الله ، دون تبديل ولا تحريف ولا مساومة ولا تنازل ، على سنة المرسلين كما رأيناها في سيرة نوح وسيرة إبراهيم عليهما السلام ، وسيرة سائر الأنبياء والمرسلين كما سنذكر بعضهم . ومنهم : داود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ، وذو النون يونس إذ ذهب مغاضباً :

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » [الأنبياء : ٨٧-٨٨]

لقد دعا يونس قومه وألح بالدعاء فما وجد استجابة لدعوته ، فذهب مغاضباً تاركاً قومه ودعوته إليهم ، وركب في سفينة ، ووقع عليه الاختيار ليقذف في البحر لظروف أَلَمَّتْ بالسفينة ، فألقي ، فالتقمه الحوت ، فأدرك خطأه ، ثم تاب واستغفر ودعا ربّه ، فاستجاب له ربه وغفر له ، وألقاه الحوت من جوفه ، فعاد يدعو ويبلّغ :

« وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » [الصافات : ١٣٩-١٤٨]

درس عظيم نتعلمه من قصة يونس عليه السلام . إنه لم يصبر على عدم استجابة قومه لدعوته ، فذهب عنهم مغاضباً . فلقنه الله درساً قويّاً ، حتى تاب وأناب وأدرك حق دعوة الله ورسالته ، وما تفرض على صاحبها من وجوب الصبر ومداومة الدعوة إلى الإيمان الحق والتوحيد الصافي ورسالة الله بكاملها دون تردد أو تغيير أو توقف أو عدم الصبر . وهكذا رأى يونس عليه السلام فضل الله عليه إذ نجاه وأرسله إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا .

إن دعوة الله ورسالته حق مبين وهي تمثل الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، وتمثل أخطر قضية في حياة البشرية كلّها وحياة كل إنسان ، على مضيّ العصور والأزمان. إنها الرسالة التي تعرض حقيقة الحياة الدنيا ومنزلتها عند الله ، وحقيقة الموت لكل نفس ،

وحقيقة الساعة والبعث والحساب ، وحقيقة الجنّة والنار في الدار الآخرة .

أن دعوة الله ورسالته إلى عباده رحمة واسعة منه ، وفضل منه كبير ، رحمة وفضل ممتدان مع العصور كلها ، لتسقط حجة الكافرين وينجي الله المؤمنين .

وتظل هذه المواقف آيات بيّنات مع مضيّ الأزمان ، تقرع القلوب ليخشع من يؤمن وينجو من عذاب الله .

الفصل الثالث

مع سيرة
يوسف عليه السلام

ولنقف وقفة مع يوسف عليه السلام . فقد اتهم ظلماً بسوء ، وبدت لهم الآيات على طهره وسلامة موقفه . ولكنه أدخل السجن : لقد التجأ إلى الله وحده :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٣-٣٤]

ومع ذلك ، ومع أنهم رأوا الآيات البيّنات بطهره وثباته ، فإنهم رأوا أن يسجنوه إلى حين :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف :٣٥]

ودخل السجن مظلوماً ، ولما رأى في السجن رجلين عرفا فيه الخير والإحسان ، فعرضا عليه ما رأياه في نومهما من حلم :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف :٣٦]

فلم يبادر إلى تفسير أحلامهما وإجابته لطلبهما ، فهو نبيٌّ مسلم يحمل رسالة ربّانية ، فبادر إلى ما يجب عليه من تبليغ رسالة ربّه اولاً ، فهذا هو الواجب الأول عليه ، وعلى جميع المرسلين والمؤمنين الدعاة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧-٤٠]

نعم ! هذا هو الواجب الأول على الداعية المؤمن أن يبلّغ رسالة الله تبليغاً منهجيّاً ويتعهدهم عليه تعهداً منهجيّاً ، حتى يُنقذ الناس من الهلاك في جهنم إذا ماتوا على غير الإسلام أو على الشرك . إنها الأمانة والعهد والميثاق في عنق الرسل جميعاً وفي عنق الأمة المسلمة ، وفي عنق كل مؤمن داعية يتصدّر للدعوة والبلاغ ، والوفاء بالأمانة والعهد .

هذا الواجب الأول يجب أن لا يصرف الدعاة عنه ايّ شيء أخر من نزوات الدنيا وشهوتها وزخرفها .

وهذا هو الخط الأول البارز في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام، ولم نر التفلّت منه إلا في عصرنا الحاضر وبعض العصور الإسلامية المتأخرة ، ورافق هذا التفلّت من هذا الواجب جهل بالإسلام ، جهل بالكتاب والسنة واللغة العربية ، حتى أصاب المسلمين اليوم ما أصابهم من هوان وذلّ .

عند التفلت من أوامر الله وتكاليفه الربانية ، ينزل من الله عقاب شديد ، وبلاء عظيم على من تفلّت وخالف ونكص على عقبيه ، أو ذلَّ واستكان ورضي بالهوان ، أو انحاز إلى صفوف المشركين تحت راية الإسلام ، يحكمه فقه المشركين لا فقه الإسلام ، وشعارات المشركين لا شعارات الإسلام .

وهذا قوله سبحانه وتعالى فيمن يفرّق أمر الأمة المسلمة ويشغلها بالفتن والصراع والانشقاق والأحزاب :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥]

إن الالتزام بكل معنى الالتزام بهذه الرسالة الربانية ، بدين الله الإسلام ، دين جميع الرسل والأنبياء ، هو وحده باب النجاة من كل فتنة وهوان !

الفصل الرابع

مع سيرة
موسى عليه السلام

وفي قصة موسى عليه السلام دروس وعبر ، وموعظة وتذكير . فلنتدبّر هذه الآيات الكريمة :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾
[طه :٩-١١]

وهنا تبدأ مرحلة تلقّي الرسالة عن ربه ، وتعرض عليه التكاليف بكل ثقلها ومسؤولياتها وتكاليفها .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه :١١-١٦]

إنه كليم الله ، تلقى الرسالة عن ربه مباشرة ، بكل ما فيها من مسؤولية وتكاليف جسام : « ... **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** » !

ويأتي التوجيه الرباني ليُرِيَ موسى بعض آيات الله ، لِيُثَبِّتَ قلبه وإيمانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى . لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى . اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه : ١٧-٢٤]

وبدأ التكليف الحق : «**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**» ! فبدأ موسى عليه السلام باللجوء الحق إلى الله وقد أدرك عظم المسؤولية والتكليف :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه : ٢٥-٣٦]

ثمّ بيّن الله لموسى فضله عليه ، باختياره لهذه المهمة ، وعونه له فيها ، وتنبيته هو وأخيه هارون على هذه المهمة الثقيلة ، من الذهاب إلى الطاغية الجبار فرعون ، ودعوته إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٢-٤٤]

إنها مهمة ثقيلة جداً أن يقف أمام أكبر طاغية ظالم في الأرض يدعوه ويذكره. فشعر موسى وهارون بشيء من الرهبة والخوف :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه : ٤٥-٤٨]

ويدور الحوار بين موسى وفرعون . موسى ثابت واضح يعرض القضية بكل وضوح وجلاء ، وقوة وثبات :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا

مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾

[طه : ٤٩-٥٨]

وحدّد موسى عليه السلام الموعد بحزم وجزم ، وجعله موعداً يلتقي فيه أكثر الناس ، حتى يكون جمعاً غفيراً يشهدون صدقه وصدق دعوته :

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى . قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه : ٥٩-٦١]

كان فرعون والسحرة معه يعتقدون أن ما جاء به موسى سحر مثل سحرهم واستعدّ كل فريق متحدّياً الفريق الآخر : فرعون والسحرة ثم موسى وآيات الله معه .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه : ٦٥-٧٠]

لحظات وآمن السحرة فوراً برسالة موسى وهارون ، آمنوا برب موسى وهارون، ذلك كان آيةً من الله لتكشف حقيقة الإيمان ، ولتبرز صدق الإيمان عند السحرة . فالسحرة يعرفون السحر وخداعه ، ورأوا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس بسحر، وهم أعلم الناس بالسحر . ولما أخذ فرعون ينذرهم ويهددهم ردّوا عليه بقوة الإيمان واليقين ، ليظل هذا الموقف درساً للمؤمنين والدعاة على مدى الدهر ، حتى لا يتنازلوا ولا يساوموا ولا يخافوا في الله لومة لائم . إن المؤمنين الصادقين يطلبون الجنّة ، والدنيا كلها عند الله لا تعادل جناح بعوضة . فتتدبّر موقف السحرة من فرعون بعد أن آمنوا :

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه : ٧١]

فماذا ردّ عليه السحرة ؟! لم يجزعوا ولم يترددوا في إيمانهم ، ووقفوا موقفاً إيمانيّاً جليّاً :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [طه : ٧٢-٧٦]

ولأهمية هذا الموقف يعود ذكره في سورة الشعراء ، مع شيء من التفصيل. فهو موقف يحتاج إلى الإعادة لأهميته وخطورته ، وليكون درساً فورياً للمؤمنين أبد الدهر :

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[الشعراء : ١٠-١٧]

وهذه الآية : « **كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ** » فالله سبحانه وتعالى مع رسله وهم يبلغون ، ومع المؤمنين الصادقين الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق. ومن كان الله معه فلا يخاف شيئاً أبداً . ويدور الحوار بين فرعون وموسى ، إلى أن يسأل فرعونُ موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

[الشعراء : ٢٣-٣١]

إن ثبات موسى وهارون أمام الطاغية الظالم فرعون لدرس للدعاة على مر الدهور، ليثبتوا وهم يدعون ويبلغون رسالة ربهم إلى الناس كافّة ، وهم واثقون أن الله رب العالمين معهم :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء :٣٢-٣٥]

ويدور الموقف كما سبق في سورة طه ، وجمع السحرة ليجابهوا موسى عليه السلام بسحرهم ، وكلّ ظنهم أن موسى ساحر عليم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٤١-٤٢]

فقال موسى للسحرة أن يلقوا ما هم ملقون أولاً . ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾

[الشعراء :٤٦-٤٨]

موقف عظيم ، ففي لحظات انكشف للسحرة أن ما اتى به موسى ليس بسحر ، وهم أعلم الناس بالسحر . وغرس سبحانه وتعالى في قلوبهم الإيمان واليقين ، وأُلْقُوا ساجدين، ليبقى هذا الموقف العظيم آية عظيمة على مدى الدهر ، وليثق المؤمنون الصادقون بربهم ما داموا صادقين داعين مبلّغين ، فالله معهم وكفى بالله وكيلاً ومعيناً وناصراً .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[الشعراء :٤٩]

تهديد مرعب ، أشد مما يمكن أن يلقاه أيّ داعية ، ومع ذلك ثبتوا ولم يتراجعوا عن الحق الذي آمنوا به ، فأجابوه بالثبات والعزم :

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٥٠-٥١]

وسار موسى بقومه ، وحشر فرعون جنوده ليتبعوا موسى وقومه :

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢]

هذا الثبات والإيمان الحق ، هو موقف الرسل والصادقين ، لتكون هذه المواقف كلها درساً للمؤمنين الدعاة على مر الزمن ، فلا يتراجعون ، ولا يساومون ، ولا يغيرون رسالة ربهم ، ولا يهبطون إلى الخشية والضعْف ، وطلب الدنيا ومتاعها ، بدلاً من أن يُصرّوا على طلب الآخرة ورضوان الله . اللجوء الحق الصادق إلى الله سبحانه وتعالى هو باب النجاة الوحيد :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٦٣-٦٨]

موقف واحد ثابت للرسل الذين حملوا رسالة الله ليبلغوها أقوامهم . مضوا في مهمتهم على صراط مستقيم لا يساومون ولا يبدّلون ، قلوبهم معلقة هناك بالآخرة لا تفتنهم الدنيا بكل زخرفها وزينتها :

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ . فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾
[الشعراء : ٩٠-١٠٤]

هنا يحسن بالمسلم اليوم أن يقف مع هذه الآيات يتأملها ويتدبَّرها عسى أن يشرح الله صدره للإيمان الحق ، لينهض إلى دين الله ودعوته ، ويبذل جهده دون مساومات ولا تنازلات ولا مراوغات ، وليعلم أن تبليغ رسالة الله إلى الناس ودعوتهم إليها وتعهدهم عليها أمانة وعهد وميثاق ، ووقفة أخرى مع موسى عليه السلام وهو يدعو ويبلّغ رسالة ربه . تحت تهديد فرعون وظلمه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر :٢٦-٢٧]

وهنا ، وقد امتدت دعوة موسى عليه السلام حتى بلغت رجلاً من آل فرعون يكتم إيمانه، يكشف مؤمن آل فرعون عن نفسه ويهبّ ليدافع عن موسى عليه السلام وعن رسالته:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر :٢٨-٣٥]

وهذا الرجل المؤمن يكشف لنا موقفه عن حقيقة الإيمان والتصديق بالرسالة الربانية ، وصدق الالتزام ، ووعي الواقع متجاوزاً أي مخاطر قد يتعرض لها ، ما دام هو في حماية الله سبحانه وتعالى ، فإن نجا من فرعون فذلك فضل الله عليه ، وإن قتله فرعون فقد فاز برحمة الله وجنته في دار الخلد :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر :٣٦-٣٧]

وتابع مؤمن آل فرعون يدعو ويبلّغ بقوة وجلاء وثبات :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر :٣٨-٤٦]

الفصل الخامس

مع سيرة رُسَلٍ آخرين عليهم السلام

ونلمس الموقف ذاته من الثبات على الحق والصبر على الابتلاء مع سائر الرسل عليهم السلام . ونورد قبسات من ذلك :

وهذا هود عليه السلام :

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف :٦٥-٦٩]

فماذا أجابه قومه :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف :٧٠]

وتعود القصة في سورة الشعراء ، حين خاطب هود عليه السلام قومه قائلاً :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٣١-١٤٠]

وكذلك كذبت ثمود المرسلين حين كذبوا أخاهم صالحاً وهو يدعوهم إلى رسالة ربه التي جاء بها كل المرسلين . فبماذا أجابوه :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ . فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء :١٥٣-١٥٩]

نعم ! إن في ذلك لآية ! وإنها آية ماضية مع الدهر كله تنضم إلى سائر الآيات التي بيّنها الله مع رسله جميعهم ، تظل تقرع قلوب الناس ليؤمنوا ويثبتوا على هذا الدين الحق دون أن يُغَيّروا فيه أو يحرّفوه أو يتنازلوا ويساوموا .

وتمتد هذه الآيات البينات مع لوط وقومه ، حتى قام قومه عليه وهو يدعوهم إلى الله الواحد الذي لا إله سواه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٦٧- ١٧٥]

ويتكرر المشهد مع شعيب عليه السلام وأصحاب الأيكة الذين بعثه الله إليهم. فدعا شعيب عليه السلام قومه ونصح لهم ، كما نصح سائر الرسل عليهم السلام . فبماذا أجابوه :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

[الشعراء : ١٨٥-١٩١]

نعم ! إن في ذلك لآية ! وإنها لآيات تتوالى مع الزمن ومع الرسل حتى ختموا بالرسول الخاتم محمد ﷺ ، بعثه الله رحمة للعالمين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ . إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ . وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧-١١٢]

الفصل السادس

مع سيرة
عيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام رسولاً بعثه الله إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى دين الله الحق، إلى الإسلام ، دين جميع الرسل والأنبياء والمؤمنين المتقين على مدى الدهر، دين واحد ، لا دين سواه عند الله ، فالله رب السموات والأرض ، رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله ، إله واحد ، فلا يُعقل أبداً أن يبعث لعباده بأديان مختلفة يتصارعون عليها[1] .

لقد بعث برسله جميعاً بدين واحد هو الإسلام ، رسلِه الذين ختموا بمحمد ﷺ :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٤٥-٥١]

بعث الله عيسى عليه السلام رسولاً يبلّغ رسالة ربه إلى بني إسرائيل ، لينقذهم من عذاب جهنم إن ماتوا على غير دين الإسلام . بعثه الله وأيّده بالآيات البينات كما وردت في الآيات السابقة من سورة آل عمران . آيات بينات مصدّقة لرسالته .

(١) يراجع كتاب : « إن الدين عند الله الإسلام - دين جميع الأنبياء والرسل» للمؤلف.

ولكن بني إسرائيل لم يؤمنوا به كلهم ، فمنهم من آمن وصدّق واتبع فكانوا من المسلمين ، من أمة الإسلام الواحدة الممتدة مع الدهر :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء :٩٢]

ومع كل هذه الآيات البيّنات والدعوة الواضحة الصريحة ، لم يؤمنوا كلهم به، بل كفر فريق من بني إسرائيل ، وهم اليهود الذين امتد كفرهم زمناً طويلاً ، وغيروا برسالة عيسى عليه السلام وبدلوها وحرّفوها ، وجاءوا بدين جديد :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٢-٥٣]

هؤلاء هم المسلمون الذين آمنوا بالله وبرسالة عيسى عليه السلام . ولكن كان هناك فريق آخر لم يؤمنوا ، وأخذوا يؤذون عيسى عليه السلام بكل وسائل الإيذاء . وكل ذلك لم يصدّه عن رسالته ، فمضى ثابتاً قوياً كما ثبت المرسلون :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران :٥٤]

ولقد كان مكرهم شديداً وإيذاؤهم لعيسى عليه السلام حتى حاولوا الفتك به وقتله . فتمالؤوا عليه ووشوا به إلى الملك آنذاك وكان كافراً ملحداً . فقالوا له : إن هنا رجلاً يضلُّ الناس ويصدّهم عن طاعة الملك ويفسد الرعية ، ويفرّق بين الأب وابنه ، وكذبوا وادعوا أنه وَلَدُ زنيةٍ وجعلوا فيه من القبائح حتى استثاروا الملك . فبعث الملك من يحضره ويصلبه وينكل به . ولما جاء القوم الكافرون ليأخذوا عيسى عليه السلام وأحاطوا بيته وظنوا أنهم قد ظفروا به ، حين دخلوا البيت وجدوا رجلاً حسبوه عيسى عليه السلام . وأما عيسى عليه السلام فقد رفعه الله إليه « ... **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** » !

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران :٥٥-٥٨]

لقد اشتد إيذاء الكافرين من بني إسرائيل ، وهم اليهود ، لعيسى عليه السلام وامتد حتى رفعه الله إليه وكفاه شرّهم :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران :٥٩-٦٣]

واستمرّ الإيذاء لعيسى عليه السلام ، وتآمروا عليه وادعوا أنه كاذب ورموه بالسحر وهو ثابت في دعوته ورسالته يبلغ رسالة الله بكل جلاء وجرأة وثبات :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف :٦]

وهل هنالك ظلم أكبر من هذا ، تكذيب لرسل الله وتكذيب لله ، وعدوان وإيذاء، يريدون أن يطفئوا نور الله ، ولكن خاب سعيهم وردّ الله كيدهم إلى نحورهم :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف :٧-٩]

ولما اشتد الإيذاء والتآمر على عيسى عليه السلام ، ووضح الحق وبان سبيل الإيمان وسبُل الضلال والكفر ، فنادى عيسى عليه السلام من أنصاري إلى الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ

مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف : ١٤]

فثبت عيسى عليه السلام في دعوته وتبليغه رسالة الله وتعهُّدِه لمن آمن معه فأنزل الله نصره عليه وعلى الحواريّين بصدق الموقف وثبات الدعوة إلى الله .

وإنه لسنّة ماضية في الكون والحياة أن الله ينصر من ينصره ، ولا يتخلى عن عباده المؤمنين الصادقين ، وهم يوفون بعهدهم مع الله بالقيام بتبليغ رسالة الله للناس وتعهّدهم عليها لينقذوهم وينقذوا غيرهم من عذاب الآخرة إذا ماتوا على غير دين الإسلام .

فأما الفئة التي آمنت بعيسى عليه السلام رسولاً من عند الله . يبلّغهم رسالة الله ودينه هو الإسلام ، فكانوا مسلمين : « **فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** » ، وأما الذين كفروا ولم يؤمنوا وتآمروا على عيسى عليه السلام فكانوا اليهود : « **وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ** » [(١)] .

وفُتِنَت اليهود وفُتِن بعض من تبع عيسى عليه السلام وحرّفوا دين الله ، ودعوا إلى دين جديد :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠-٣٣]

ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل أن يلتزموا دينه الحق ، وهو الإسلام ، ولكن بعضهم نقض عهده ودخل في الفتنة . وكذلك أخذ الله ميثاق الذين قالوا إنا نصارى

---

(١) يراجع كتاب : « إن الدين عند الله الإسلام - دين جميع الأنبياء والرسل » للمؤلف .

ليلتزموا دين الله الحق الواحد وهو الإسلام ، فانحرفوا وحرّفوا دينهم [1] :

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

[المائدة : ١٢ـ١٤]

وعلى أساس هذا الانحراف الشديد عن دين الله الواحد الحق ، دين الإسلام، بعث الله رسوله ونبيَّهُ محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، رحمة منه سبحانه وتعالى بعباده :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء :١٠٧]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء :١٠٨]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

(١) يراجع كتاب : « المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية » للمؤلف .

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٥-١٩]

والوقفة هنا مع فضل الله ورحمته لرسوله عيسى عليه السلام ولأصحابه الذين آمنوا وثبتوا وتحملوا الأذى والعدوان ، فثبتهم الله وقد علم أن في قلوبهم الصدق . والوقفة الثانية مع هذا الانحراف الشديد عن دين الله الحق الواحد ، دين الإسلام ، ممن سمّوا أنفسهم بالنصارى ، والانحراف الشديد ممن كانوا يهوداً وفارقوا دين عيسى عليه السلام . ومضوا جميعهم مع الدهر مفارقين الدين الحق .

موقفان متعارضان لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وهو أعلم بما في قلوب عباده من صدق وإيمان أو شرك وكفر ، وقضاؤه حق وعدل . فريق آمن بعيسى عليه السلام رسولاً من عند الله فاتبعه وآزره . وفريق كفر وسار في طريق الضلال .

ولحكمة يريدها الله انحرفت النصارى واليهود عن دين الله الحق ، وحرّفوا التوراة والإنجيل ، ثم لم يتبعوا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة :٤١]

الموقفان المتناقضان بارزان من خلال هذا التاريخ : موقف الذين آمنوا بعيسى

عليه السلام ولم ينحرفوا ولم يحرّفوا في الإنجيل ، وموقف الذين فتنوا فحرفوا وبدلوا :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة : ٥٠-٥٢]

وقد بيّن الله لعباده الحقيقة كاملة في كتابه المبين ، القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة : ٧٢-٧٦]

ويمتد الخطاب إلى أهل الكتاب في القرآن الكريم يبيّن لهم الحق ليعودوا إليه ويسلموا ويؤمنوا ، ولا يغلوا في دينهم غير الحق .



الباب الثالث

حول الثبات
على الحق والصبر على الابتلاء

- الفصل الأول : مع سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .
- الفصل الثاني : نماذج من صبر الصحابة وثباتهم رضي الله عنهم .

الفصل الأول

مع
خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ

رأينا في الصفحات السابقة مواقف الرسل عليهم السلام من التحدّيات والصعوبات والأخطار التي كانت تهدّدهم وتحيط بهم . وموجز تلك المواقف هو الثبات والحزم وعدم التنازل عن أي جزء من الرسالة الربانية التي يحملونها ، وعدم تحويرها أو تبديلها ، وبذل الجهد لمجابهة تلك الأخطار .

وبعث الله للبشرية كلها خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ ، مبشّراً ومنذراً ، مبشراً بالجنة في الدار الآخرة ، وبعون الله ونصره لمن التزم وثبت وصدق ، ومنذراً بالنار في جهنم وبئس المصير لمن كفر وأشرك . وأنزل الله مع النبيّ الخاتم كتابه المبين ، القرآن الكريم ، حجّة قائمة إلى يوم الدين .

وعندما انطلق محمد ﷺ من مكة المكرمة ، بدأ يلاقي الإيذاء والعنت من قومه قريش . وكلما مضت الأيام كان الإيذاء يشتد ، وكان محمد ﷺ يجابه ذلك كله بالثبات على الحق ، على رسالة ربه ، على الإسلام دين الله ودين جميع الأنبياء المرسلين .

ولم يجد عنتاً كبيراً أول الأمر إلى أن ذكر أصنامهم التي يعبدونها بسوء ، فبدأ العداء ينكشف ويقوى ، وأجمعوا على خلافه وعداوته ، إلا من دخل في الإسلام، وهم قليل مستضعفون مستخفون . فقام أبو طالب عم الرسول ﷺ يحميه ويقوم دونه . ومضى رسول الله ﷺ يدعو قومه إلى الإسلام دعوة صريحة ثابتة . فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فنكفيكه وأنت على مثل ما نحن عليه . فأجابهم بقول رقيق فانصرفوا عنه .

وهنا نلاحظ معنى الثبات الواجب في الدعوة الإسلامية اليوم وغداً وعلى مر الأيام ، ثبات محمد ﷺ وهو لا يبلّغ إلا ما يوحى إليه من ربه . فعادوا إلى ابي طالب ينذرونه ويهددون الرسول ﷺ . واشتد العداء حتى أخذت قريش ومن معها تعتدي

على المسلمين وتشتدّ في إيذائهم ، وهم صابرون لا يرجعون عن دين الإسلام الذي أمنوا به . وأخذت قريش تتصدى لوفود العرب القادمين إلى البيت الحرام ، وتحدثهم بالسوء عن رسول الله ﷺ حتى لا يستمعوا إليه . فكانوا يقولون عنه إنه ساحرٌ يفرّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فجعلوا يجلسون بِسُبُل الناس يحذرونهم منه . وكان رأس هذه العداوة الوليد بن المغيرة . فنزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر :١١-١٧]

إلى آخر الآيات الكريمة . فلما رأى أبو طالب دهماء العرب يؤذونه مع قومه قال قصيدته ، يتودد فيها أشراف قومه ، ويبلغهم أنه لن يسلّم لهم رسول الله ﷺ ولا تاركه، حتى يهلك دونه . ومطلع القصيدة :

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم وقد قطعوا كل العرا والوسائل

واشتد أمر قريش في عداوتهم لمحمد ﷺ ، فأغروا سفهاءهم فكذّبوه وآذوه ، واتهموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يخفيه ولا يستخفي به ، يجابههم بما يكرهون ، بالحق من تسفيه دينهم ، واتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم لكفرهم .

وقد اجتمع أشراف قريش عند الحجر ، وذكروا ما عاب فيهم الرسول ﷺ ، فطلع عليهم الرسول ومضى حتى استلم الركن وأخذ يطوف بالبيت ، فكلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول ، وأعادوا ذلك كلما مرّبهم ، وعند الثالثة وقف وقال : « يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ! فأثّر فيهم القول ، وقام بعضهم يُهدِّئه بأحسن ما يجد من القول . فقال بعضهم : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنتَ جهولاً . وفي يوم آخر هبوا إليه وأخذوا بجمع ثيابه ، حتى قام أبو بكر رضي الله عنه يدفع عنه ويبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربيّ الله ؟!

والرسول ماض في دعوته وإعلان دين الحق ، دين الله دين الإسلام . ولما اشتدَّ الإيذاء كثيراً ، فلم يلقَه أحد ، حرّاً كان أو عبداً ، إلا آذاه . فرجع إلى بيته فتدثَّر من شدّة ما لاقى من قومه . فنزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر :١-٣]

ولما علم حمزة بن عبد المطلب كم آذى أبو جهل رسول الله ﷺ ، جاءه وهو عند الكعبة . فوقف وقام على رأسه وضربه بقوسه وشج رأسه وقال : أفتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول . فردّ ذلك عليّ إن استطعت . فلما قام بعضهم ينصر أبا جهل ، قال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة ! فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وكان إسلام حمزة سبباً في تخفيف إيذاء قريش .

وحاول عتبة بن ربيعة معالجة الموقف بعرض زخرف الدنيا على رسول الله ﷺ ، عسى أن يرجع عمّا هو فيه . فقال له : يا ابن أخي ! إنك منا حيثُ قد علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم .. ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قلْ يا أبا الوليد ، أسمعْ . قال: يا ابن أخي ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً ، وإن كنتُ تريد شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريد به ملكاً ، ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، ... إلى آخر ما قال. فقال رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟! قال : نعم ! قال فاسمع مني . قال : أفعل . فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ... ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فعاد عتبة بن ربيعة إلى قومه لينصح لهم أن يتركوا الرسول ﷺ وشأنه ، فإن ظهر على العرب فملكه ملكهم ، وإن تصبه العرب فقد كُفيتُموه بَغَيْرِكم . فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ! فاصنعوا ما بدا لكم .

ثمّ إن وجوه قريش اجتمعوا ودعوا رسول الله ﷺ ليكلموه . فكلموه بما كلمه عتبة بن ربيعة سابقاً . فقال لهم : « ما بي ما تقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم . ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتُكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : فإن لم تفعل هذا لنا ، فخذ لنفسك ، سلْ ربّك أن يبعث معك مَلكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك . وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضّة ، يغنيك بها عما نراك تبتغي ، إلى آخر ما قالوا . فقال لهم : « ما أنا بفاعل. وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بُعثتُ إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » فقالوا : « فأسقط علينا كسفاً من السماء ، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل » . إلى آخر ما دار من الحديث .

واستمرت قريش في تعذيب من أسلم تعذيباً شديداً . قال عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة كلاماً كثيراً ليحرجه ، وعرض عليه كل ما سبق لرجال قريش أن طلبوه فما أوفى لهم ما طلبوه ، وهو كله تعجيز . ثم قال : والله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله ، لو فعلت ذلك ما أظنّ أني أصدّقك . ثم انصرف . وقام أبو جهل إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي في الكعبة ، يريد أن يلقي حجراً كبيراً عليه وهو ساجد. فلما حاول ذلك رجع مذعوراً منهزماً منتقعاً لونه ، وقال لقومه : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، فلا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (أي أصل العنق) ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهمّ أن يأكلني .

ولما عرف رسول الله ذلك قال إنه جبريل عليه السلام . لو دنا لأخذه . ولا بد من وقفة هنا لنرى ثبات الرسول ﷺ وحسن ثقته بربّه ، وبشدّة حماية الله له ، وحماية الله سبحانه وتعالى ممتدّة للمؤمنين الصادقين الذين يوفون بعهد الله وينصرون الله :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر :٥١]

إنه لدرس يجب أن يتعلمه الدعاة المسلمون على مرّ الزمان : إن يصدقوا الله وينصروه ، وأن الله ناصرهم ، على أن لا يحرّفوا ولا يبدّلوا ولا يساوموا ولا يتنازلوا .

وكان ﷺ أول أمره بالدعوة يخرج مع علي بن أبي طالب إلى شعاب مكة للصلاة، ثم كان يخرج مع أصحابه كذلك للصلاة ، ثم أمره الله سبحانه وتعالى بمباداة قومه ودعوتهم إلى الإسلام ، ونزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر :٩٤]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤-٢١٦]

واشتدت عداوة قريش للرسول ﷺ وللمسلمين الذين اتبعوه . وأغرت قريش القبائل على إيذاء من فيهم من المسلمين . فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم . وأخذت قريش تشوه رسالة محمد ﷺ ، وتشيع بين القبائل أنه ساحر أو مجنون أو كذاب ، فذاع ذكره ﷺ في بلاد العرب كلها . ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله ، معلن لدين الله ، لا يستخفي منه . وآذوه في الكعبة وهو يصلي، وأخذ أحدهم بمجمع ردائه يشده ويجذبه ، حتى قام أبو بكر رضي الله عنه يصدّ عنه فآذوه كذلك .

بذلت قريش كل ما في وسعها من قوة ومكر في إطفاء نور هذه الدعوة الربانية ، ولكن الرسول ﷺ ظلّ ثابتاً يُظهر أمر دين الله بقوة وحزم وصبر . وباءت جهود قريش في إيذاء وصد رسول الله ﷺ بالفشل ، بعد أن قيض الله له عمه أبا طالب يدافع عنه ويحميه، وبعد أن أخذ يتزايد عدد المؤمنين . فاتجهت نقمة قريش إلى أصحاب رسول الله ﷺ يذيقونهم مرّ العذاب وأشده .

فبلال رضي الله عنه كان مملوكاً لأُمية بن خلف الجمحي . وكان يعذّبه بأن يلقيه على وجهه وظهره في الرمضاء ، ويضع الصخرة على صدره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة . ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى،

وبلال صابر يردد كلمة : أحد ، أحد . وأخيراً استبدل به أبو بكر رضي الله عنه عبداً آخر مشركاً وأعتق بلالاً .

أما عمار وأمه ووالده ياسر فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذّبونهم بحرّها . فلما مرّ بهم الرسول ﷺ قال لهم : «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» ! فمات ياسر تحت العذاب رضي الله عنه وأرضاه . أما سميّة فقد أغلظت القول لأبي جهل لعنه الله فطعنها بحربة في قُبُلِها ، فكانت أول شهيدة في الإسلام . وأما عمار فقد شدّدوا عليه العذاب بالصخرة على صدره ، أو بالغمس بالماء حتى يختنق ، ويقولون له : لا نتركك حتى تسبَّ محمداً وتقول خيراً في اللات والعزى . فلما زادوا عليه العذاب بما لا يطاق اجابهم إلى طلبهم فتركوه . وجاء إلى النبي ﷺ يبكي لما قال . فقال له الرسول ﷺ : كيف تجد قلبك ؟! قال أجده مطمئناً بالإيمان فقال : إن عادوا فعد . ونزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[النحل :١٠٦]

وأما خباب رضي الله عنه فقد عذبه المشركون عذاباً شديداً يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحماة بالنار ، ويلوون له رأسه ، وهو ثابت !

وأما عامر بن فهيرة فقد عُذِّب عذاباً شديداً ولم يصرفه ذلك عن دينه . وأما أبو فكيهة واسمه أفلح أو يسار ، فقد كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، فأخذه أمية بن خلف وربط رجليه بحبل وأمر به فجرَّ بالحبل وألقي في الرمضاء ، ومرّت بجانبه حشرة ، فقال له أميّة : أليس هذا ربك ؟! فقال : الله ربي وربّك ورب هذا . فخنقه خنقاً شديداً . وكان يقول أبيّ بن خلف لأخيه أميّة : زده عذاباً حتى يأتي محمد فينقذه بسحره . فزادوه عذاباً حتى ظنوه أنه مات ، وكان قد أغمي عليه ، فلما أفاق اشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه .

وأما النساء زنّيرة ، وأم عبيس ، ولبيبة ، والنهدية فقد عذِّبن عذاباً شديداً من مواليهنَّ ، فلم يرجعن عن دينهن ، دين الله ، ودين الإسلام .

ونقف هنا وقفة قصيرة لنرى شدّة التشابه بين تعذيب المؤمنين هذا كما أوجزناه، والعذاب الذي تضج به سجون المجرمين في الأرض في تعذيب المؤمنين اليوم ، فصبر من صبر ، وفتن من فتن :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت :٢-٦]

ولقد سبق أن أشرنا إلى ما لقيه الرسول ﷺ من شتم وسبّ واستهزاء . وكان أشد من تولّى كبر ذلك : أبو لهب وهو عبد العزّى بن عبد المطلب ، وهو عم الرسول ﷺ . وكان يطرح العُذرة والقاذورات على باب النبيّ ﷺ . وكانت زوجته أم جميل العوراء مثله في عداوة الرسول ﷺ ويغضه ، وقد لقبها الرحمن في القرآن : « بحمّالة الحطب » . وقالت مذمّماً عصينا .. وأمره أبينا .. ودينه قلينا » .

ولما بلغ أبا لهب نبأ هزيمة قريش ببدر أصابه الله بمرض « العدسة » ، فمات شر ميتة ، ولم يقدروا على غسله لشدّة الرائحة الكريهة التي تنبعث منه . فصبوا عليه الماء من بعيد ، وانسلخ جلده وتساقط .

وكان ممن آذى الرسول ﷺ : أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي ، والنّصر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط الأموي ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، والحارث بن قيس السهمي ، وأُبيُّ وأميّة ابنا خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، ونُبَيْهُ ومُنَبّه ابنا الحجاج السهميان ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، ومالك بن الطلاطلة بن عمر بن غيشان ، وركانة بن عبد يزيد .

ولم يكن العداء من هؤلاء وحدهم ولكن هؤلاء الذين تولّوا كِبْرَ الإيذاء والعداء والاستمرار فيه ، ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا اقل عداوة ، وهناك آخرون كانوا شديدي العداء أولاً ثم أسلموا .

والذين مضوا في عداء الرسول ﷺ أهلكهم الله ، وشهد الرسول ﷺ مهلكهم، تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر :٩٥]

ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين ، ولم يكن الرسول ﷺ قادراً على حمايتهم ، فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : « لو خرجتم إلى ارض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظْلَم أحد عنده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » !

وهنا نحتاج إلى وقفة أخرى . فلم يكن الحل والعلاج التراجع عن العقيدة أو التهاون في امرها أو المساومة عليها أو تحريفها . ولكنه ثبات راسخ في الإيمان والعقيدة ، واثقين من عون الله ونصرته ، مُوقِنين أن هذا ابتلاء من الله وتمحيص لهم ، ولا مجال لشيء إلا الصبر والثبات واللجوء إلى الله . ثم بلغهم وهم في الحبشة أن قريشاً اصطلحت مع رسول الله ﷺ ، فعادوا واكتشفوا أنه خبر كاذب وأن العداء مستمر وأنه أشد . فدخلوا مكة مستخفين أو في جوار . واشتد إيذاء قريش كذلك لرسول الله ﷺ وهو ماضٍ في دعوته .

وكان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ذات يوم وقريش حاضرة بالحجر . فلما مَرَّ بهم غمزوه بالقول . فعرف ذلك في وجهه ، ولما مر ثانية غمزوه كذلك ، ثم الثالثة. فوقف وقال لهم : « اسمعون يا معشر قريش ، والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » فلم يتكلموا حتى كأن على رؤوسهم الطير . وأخذوا يسمعونه قولاً حسناً . فقال بعضهم: ذكرتم ما بلغ منكم ، حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه . فطلع رسول الله ﷺ ثانية عليهم ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، وأخذ بعضهم بردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه يدفع عنه الأذى وهو يقول : «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » ، فأخذوا يصبون أذاهم على أبي بكر رضي الله عنه رفساً بأرجلهم وضرباً بأيديهم .

ورأى المسلمون أن يعودوا إلى الحبشة ، فعادوا وهذه هي الهجرة الثانية ، وقد زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً . وبقي رسول الله ﷺ يدعو بدعوته ويبلغ رسالة الله والأذى يشتد عليه وهو صابر محتسب .

فبعثت قريش بوفد من رجالها إلى الحبشة يحملون الهدايا إلى ملك الحبشة وأعيان ملكه، ثم تكلم عمرو بن العاص وقال إن ناساً من سفهائنا فارقوا دينهم وجاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . ورغب أصحاب النجاشي بتسليم المهاجرين إلى وفد قريش ، ولكن النجاشي رفض ذلك حتى يسمع منهم . فسمع منهم بعض آيات القرآن فبكى النجاشي وقال : هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . ولما أعاد عمرو بن العاص في اليوم الثاني الكرة ، وقال للنجاشي إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً . ثم سمع ما يقولون عن عيسى ، فأخذ عوداً من الأرض ، وقال : ما عدا عيسى ما قلت هذا العود . فنخرت البطارقة ، فقال لهم : وإن نخرتم ، وقال للمسلمين اذهبوا فأنتم آمنون ، ورد هدية قريش .

ولما رأت قريش انتشار الإسلام ، وبلغها ما لقي المسلمون المهاجرون من إكرام ملك الحبشة لهم وعودة وفدها خائباً مخزيّاً ، اشتد حنق قريش على المسلمين ، فاجتمع رجالها واتخذوا قراراً بكتابة صحيفة يتعاقدون فيها على بني هاشم وبني المطّلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فكتبوا الصحيفة وتعاهدوا عليها وتواثقوا ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة . فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب برجالهم ونسائهم وأطفالهم ، ولم يدخل معهم أبو لهب .

كان ذلك سنة سبع من البعثة ، واستمر الحصار ثلاث سنوات ، عانوا فيها من الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال ، حتى إنهم اكلوا ورق الشجر ، وما يجدونه في التراب ، وكان يسمع بكاء الأطفال من الجوع . واستمر هذا الحال حتى قيّض الله سبحانه وتعالى رجالاً من ذوي النخوة والمنزلة على رأسهم هشام ابن عمر بن ربيعة ، واجتمع إليه نفر لم يكونوا راضين بفعل قريش ، فتعاونوا على نقض الصحيفة وتمزيقها فوجدوها قد أكلتها الأرضة إلا كلمة :«باسمك اللهم»! وبطل مفعولها وقال ابو جهل : هذا أمر دبّر بليل . وخرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب وعادوا إلى منازلهم بعد أن ذاقوا مرّ العذاب خلال السنوات الثلاث .

والوقفة هنا أن الظلم والعدوان من قريش امتد إلى المسلمين ومن يلوذ بهم ، وأن الصبر على الأذى كان قوياً ثابتاً . ولما صبروا ابتغاء رضوان الله وعلم الله ذلك في قلوبهم هيّأ لهم ذلك النفر الذين ثاروا على عدوان قريش ، وقرروا تمزيق الصحيفة.

وهذا شأن الصابرين الصادقين المتقين أبد الدهر ، ما دام لجوؤهم لجوءاً صادقاً إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو القائل :

﴿ ... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... ﴾ [الطلاق : ٣]

ثمَّ رُزِئ محمد ﷺ بمرض أبي طالب ووفاته . وحاولت قريش أن تستعين بأبي طالب قبل وفاته لإبرام صلح مع الرسول ﷺ . فقال لهم رسول الله ﷺ : نعم ! كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ! فقال أبو جهل : وأبيك وعشر كلمات . وهنا برزت النبوة بثباتها وقوتها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «تقولون لا إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » ! فقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الذي يعطيكم شيئاً مما ترغبون ، فامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

وبعد خمسين يوماً من وفاة ابي طالب الذي كان كالطود الأشم والحصن الواقي لأبن أخيه ، رزئ ﷺ بوفاة خديجة رضي الله عنها ، خديجة أم المؤمنين التي كانت المؤنسة عند الوحشة والضيق .

واشتد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا ينالونه من قبل . فأخذوا يرمون الأقذار عليه وعلى باب داره وداخل الدار .

إلى الطائف :

ولما فقد الرسول ﷺ النصير في مكة بعد وفاة عمه ووفاة خديجة رضي الله عنها ، توجه ﷺ إلى الطائف عسى أن يجد أنصاراً من ثقيف يعينونه على إبلاغ دعوته . فقصد ثلاثة من أشراف ثقيف . فجلس إليهم رسول الله ﷺ وبلغهم رسالة الله ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وطلب منهم نصرته على من خالفه من قومه . فقال أحدهم إنه يمرِط ثياب الكعبة إن كان الله أرسله . وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله سواك . وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلمك ، فقام عنهم ورجاهم أن يكتموا خبر ما دار عن قريش ، ولكنهم لم يفعلوا ، ثم أغروا سفهاءَهم وعبيدهم به

يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى ادموا عقبيه، وألجؤوه إلى بستان لا بني ربيعة : عتبة وشيبة ، فاستظل تحت ظل شجرة حتى استراح ثم قال :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري . إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وبعث ابنا ربيعة عتبة وشيبة غلاماً لهما يقال له « عدّاس » يقطف من العنب يقدمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما مدَّ يده ليأكل قال : « باسم الله » ، ثم أكل . فقال عداس ، والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فسأله الرسول ﷺ : من أهل أي البلاد أنت؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصراني من أهل نينوى . فقال له ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى؟ فأجابه : ذاك أخي كان نبيّاً وأنا نبيّ ! فقام عداس فقبل رأسه ويديه وقدميه . فعجب ابنا ربيعة مما رأيا ، فسألاه. فقال : ما في الأرض من خير من هذا . لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبيّ . فقالا له : ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ثم قفل رسول الله ﷺ راجعاً بعد أن يئس من نصْرة ثقيف ، وعلى الطريق عند مكان يسمى نخلة ، وقف رسول الله ﷺ من جوف الليل ، فمرّ به نفر من الجن، فسمعوا القرآن يتلوه ﷺ ، فآمنوا وحملوا رسالة الله إلى قومهم ، كما ذُكِر في سورة الأحقاف .

وبعد هذه المتاعب والآلام والإيذاء الذي لقيه ﷺ ، من حصار شديد استمر ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، وما لاقاه المؤمنون معه من إيذاء ، وما لاقى الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنون من جوع وحرمان ، وما لاقاه من فقد النصير أبي طالب، ثم فقد أم المؤمنين ، وخيبة أمله في ثقيف ، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها من إيذاء، بعد هذه الآلام التي امتدت عشر سنوات ابتداء من البعثة النبويّة، رفعه الله سبحانه وتعالى إليه ، فكان الإسراء إلى بيت المقدس ، والمعراج إليه سبحانه وتعالى ، من سماء إلى سماء حتى السماء السابعة ، ولقي في كل سماء نبيّاً من الأنبياء : ففي الأولى آدم

عليه السلام ، وفي الثانية يحيى وعيسى عليهما السلام ، وفي الثالثة يوسف عليه السلام ، وفي الرابعة إدريس عليه السلام ، وفي الخامسة هارون عليه السلام ، وفي السادسة موسى عليه السلام ، وفي السابعة إبراهيم عليه السلام . ثم قرّبه ربّه وناجاه دون أن يراه ، وعاد عليه السلام صحبة جبريل عليه السلام إلى بيت المقدس ، فأم الأنبياء فيه في صلاة الصبح ، ثم عاد إلى مكة صبيحة تلك الليلة .

ولما أبلغ قومه بذلك سخروا منه وكذبوه ، وارتدّ بعض من كان قد تبعه . ولما قال القوم ذلك لأبي بكر رضي الله عنه ، قال : إني لأُصدّقه في أبعد من ذلك ، في خبر السماء يأتيه في غدوة او روحة . فلقب أبو بكر يومئذ بالصديق . وامتحن رجال من قريش الرسول ﷺ فقالا صف لنا المسجد الأقصى ، فعرض الله سبحانه وتعالى أمامه المسجد الأقصى فوصفه أدق وصف وسألوه عن عيرهم القادمة من الشام ، فأعلم بأخبارها بدقة وثبتت لهم صحة ذلك . ومع كل هذا لم يكتب الله لهم الإيمان .

فإذا كان الإسراء والمعراج آية دالة على صدق نبوة محمد ﷺ ، فقد تلا الإسراء والمعراج آيات ثلاث : انشقاق القمر ، ودعوة رسول ﷺ ، لما لجّوا الكفر والمكابرة والإيذاء بقوله : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف كسبع يوسف ، فأصابهم القحط حتى أكلوا الجلود والعظام . ثم عادوا إليه يسألونه أن يدعو الله ليرفع عنهم ذلك ، فدعا فرفع . ولما اشتد الصراع بين فارس والروم ، وكان أهل مكة يتتبعون أخبارها ويودون أن تنتصر فارس ، والمؤمنون على خلاف ذلك . فنزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الروم :١ـ٥]

ومع عظم الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ ، غلب الكفر على فئة من قريش ، ولم يلامس الإيمان قلوبهم ، وانقلبوا وحوشاً يؤذون النبي ﷺ وأصحابه .

ذلك أن الإيمان معلق بقضاء الله ، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ، وهو وحده أعلم بما في قلوب عباده ، وهو أعلم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الضلالة .

وبقي رسول الله ﷺ بمكة ، واشتدت عداوة القوم له وايذاؤهم له ولأصحابه المستضعفين . فأخذ يعرض نفسه ودعوته ورسالة ربه في المواسم والأسواق ، ومختلف القبائل . فأتى قبيلة كندة فردّوه وأبوا عليه ، وأتى بطناً من كليب هم بنو عبد الله وطلب نصرتهم ، فردّوه ، وأتي بني حنيفة ، فردّوه أسوأ رد وأقبحه ، وأتى بني عامر فرفضوه وردّوه ، وقالوا له : أرأيت إن آزرناك وأظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فردّ عليهم : « إن الأمر لله يضعه حيث شاء » فقالوا : أنعرض نحورنا للعرب دونك ثم يكون الأمر لغيرنا إن ظهرت ، لا حاجة لنا بدعوتك !

ومضى رسول الله ﷺ يعرض نفسه ودعوته على كل قادم عسى أن يجد نصيراً ، دون يأس أبداً . وكان كلما دعا قوماً تبعه عمه أبو لهب فيقول للقوم : إنه يدعوكم إلى أن تتركوا اللات والعزّى من أعناقكم فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

هنا الدرس العظيم الذي يجب أن يتعلمه الدعاة أبد الدهر ، فلا نصر للإسلام بغيره . إنه الثبات على الحق على تبليغه للناس كافة كما جاء من عند الله، لا مساومة ولا تنازل ولا تراجع . إنها الأمانة العظيمة التي وضعها الله في أعناق الرسل جميعاً ، ثم في عنق محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، ثم في عنق الأمة المسلمة التي بناها الرسول الخاتم ﷺ ، والتي هي امتداد الأمة المسلمة التي بناها الرسل والتي آمنت بهم وصدّقتهم ، حتى كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس بصدق التزامها لرسالة الله، وبصدق حملها وتبليغها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون :٥٢]

وكذلك :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء :٩٢]

وكذلك :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران :١١٠]

هذه هي الأمة المسلمة الممتدة مع التاريخ ، أمة واحدة ، كانت خير أمة أخرجت للناس بإيمانها الحق ، والتزامها الصادق ، وتبليغها رسالة الله إلى الناس كافة ، أمانة في عنقها تحاسب عليها ، والغاية الرئيسة هي إنقاذ الناس من عذاب جهنم لمن مات غير مؤمن .

الجَهرُ بدعوة الحق ، والثبات وعدم التنازل أو التحريف أو المساومة أبداً . إنه الحق من عند الله ، فكيف يجرؤ إنسان على تغييره أو تحريفه ، إلا أن يكون فسد إيمانه .

قدم مكة سويد بن الصامت الملقب بالكامل لقوته وجلده ، قدم من المدينة وهو أوسيّ ، فعرض عليه الرسول ﷺ دعوته ورسالة الله وقرأ عليه القرآن . ولما عاد إلى المدينة قتله الخزرج في حرب « بعاث » الدائرة بين الأوس والخزرج .

وجاء أبو الحَيْر أنس بن رافع مع قتيبة من بني عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يطلبون نصرة قريش لهم على الخزرج . فعرض عليهم النبيّ ﷺ دعوته وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس : والله إن هذا لخير مما جئنا له ، فضرب وجهه أبو الخير بحفنة من التراب ، وقال دعنا منك . جئنا لغير هذا . ولم يلبث أن مات إياس وهو يكبّر ويهلّل .

وتابع الرسول تبليغ دعوته على القبائل الوافدة إلى الحج والعمرة ، حتى التقى بوفد من الخزرج عند العقبة ، فعرض عليهم الإسلام ، فذَكروا قول يهود المدينة لهم بأن الله سيبعث نبياً فنقتلكم قتل عاد وثمود . فقال الوفد : هذا والله النبي الذي تتوعدنا اليهود به . فأجابوا دعوته وصدّقوا به ، ودعوا الله أن يجمع باقي قومهم بالرسول ﷺ. فلما عادوا إلى المدينة ذكروا خبر النبي ﷺ لأهلها ودعـوهم إلى الإسلام ، حتى فشا الإسـلام فيهم وامتدّ خبره . وفي العام المقبل أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار، فلقوا النبي ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء ، على ضوء ما جاء في قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ ..**» إلى قوله : « **...وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ..** » ، ولم يذكر فيها الجهاد لأنه ليس عليهن جهاد . وكان هذا الوفد يضم أناساً من الخزرج وأناساً من الأوس . فبايعوه وانصرفوا عائدين إلى المدينة، وبعث النبي ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، فنزل مصعب رضي الله عنه على أسعد

بن زرارة . وغضب سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وكانا مشركين ، فقال سعد لأسيد انطلق إلى هذين الرجلين ، فلولا أن أسعد بن زرارة ابن خالتي لكفيتك الأمر . فجاء أسيد إليهما وطلب أن يكُفّا عن ذلك وأن يعتزلا عنهم . فقال مصعب : لو تجلس فتسمع منا فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته تركته . فقال أسيد : أنصفت . ولما كلمه مصعب بالإسلام قال : ما أحسن هذا وأجله . فعلموه كيف يصنع من يدخل في الإسلام بأن يغتسل ويتطهر وأن يشهد الشهادتين ثم يصلي ركعتين . ففعل ذلك وأسلم. وذهب إلى سعد فحدّثه بما وقع له ، فذهب سعد إلى مصعب فدعاه مصعب ، فآمن وأسلم ، وذهب إلى دار بن عبد الأشهل، وقال : إن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فآمن وأسلم كل بني عبد الأشهل رجالاً ونساءً .

وتابع مصعب رضي الله عنه دعوته أهل المدينة حتى لم يبق دار من دورهم إلا فيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من بني أمية بن زيد ووائل وواقف ، فقد توقفوا وما دخلوا الإسلام إلى بعد معركة بدر وأحد والخندق .

ولما فشا الإسلام في المدينة اجتمع عدد منهم ومضوا إلى مكة واتصلوا بالرسول ﷺ سرّاً ، وتواعدوا وسط ليالي التشريق عند العقبة ، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين : نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء أم عمرو بن عديّ من بني سلمة ، وكان مع الرسول ﷺ عمه العباس رضي الله عنه ، حضر ليستوثق لابن أخيه ، وخاطب الأنصار بوضوح وجلاء عن مدى استعدادهم لنُصْرة النبي ﷺ وحمايته . فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت . فتكلم الرسول ﷺ وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الإسلام ، وقال : أريد أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور يده وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع أزرنا فبايعنا يا رسول الله . فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحدقة (السلاح) ، ورثناها كابراً عن كابر . وقال هنا أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ! إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . وهنا تكلم

العباس بن عبادة الأنصاري فقال : يا معشر الخزرج ! هل تدرون على ماذا تبايعون ؟! تبايعون على حرب الأحمر والأسود ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكَتْ أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله خِزْيُ الدنيا والآخرة ! فأجابوه : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فبسط الرسول ﷺ يده فبايعوه على خلاف بيعة النساء السابقة ، بايعوه على حرب الأحمر والأسود . وعيّن منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهكذا كانت بيعة العقبة الثانية . وقال ارجعوا إلى رحالكم ، فقال العباس بن عبادة : والذي بعثك بالحق نبيّاً لئن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا . فقال ﷺ : «لم نؤمر بذلك»!

نقف عند هذا الحد من سيرة النبوّة الخاتمة ، حيث انطلقت الدعوة بعد ذلك من نصر إلى نصر بفضل الله ، وبالثبات على الحق من الرسول ﷺ وعدم التنازل ، أو التحريف أو التبديل ، والثبات من أصحابه الذين آمنوا وصدق إيمانهم .

ولكننا نودّ أن نعرض صوراً من العذاب والابتلاء الذي لاقاه بعض الصحابة فصبروا صبراً جميلاً ، ونالوا أجراً عظيماً ، ليكون ذلك درساً للمؤمنين على مدى الدهر.

الفصل الثاني

نماذج

من صبر الصحابة وثباتهم رضي الله عنهم

لقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في الثبات على الإسلام كما أُنزل من عند الله ، فلم يبدّلوا ولم يضعفوا ولم يساوموا .

فهذا خُبيْب بن عديّ رضي الله عنه ظفر به زعماء قريش غدراً . فساقوه إلى ساحة القتل والصلب وتجمع الرجال والنساء يدفعونه دفعاً إلى خشبة الصلب . فالتفت إلى زعماء قريش وقال : إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا .

ثم استقبل الكعبة وصلى ركعتين تامتين وهو كامل الاطمئنان . ثم أقبل على زعماء قريش يقول : والله لولا أن تظنّوا أني أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة .

ثم صلبوه على خشبة الصلب وقيدوه ، وأخذوا يمثّلون به ، فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة ، وهو حيٌّ ، ويقولون له : « أتحبُّ أن يكون محمدٌ مكانك وأنت ناج؟ فيجيبهم والدماء تنزف والتعذيب ماضٍ : « والله ما أُحبَّ أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي ، وأن محمداً يوخز بشوكة ! » فتعالى صياح القوم أن اقتلوه ! اقتلوه !

ثم يرفع خُبَيْب رضي الله عنه بصره إلى السماء ويدعو : « اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً » ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ، وبه ما لا يحصى من ضربات السيوف وطعنات الرماح .

وشهد هذه المشاهد سعيد بن عامر الجُمَحي ، فشرح الله صدره للإسلام ، وقام في ملأٍ من الناس ، وأعلن براءته من آثام قريش وجرائمها ، وخَلْعَه لأصنامها وأوثانها ، ودخوله في دين الله ، ولزم رسول الله بعد ذلك وشهد معه الغزوات .

وكلفه عمر بن الخطاب أن يكون والياً على حمص ، فأبى أولاً ، ثم أطاع أمير المؤمنين ، وكانت إمارته لحمص مثلاً عظيماً في التقوى والبذل وعفّة النفس والعزوف عن الثروة والمال .

وكان لا يخرج إلى الناس إلا بعد أن يتعالى النهار ، لأنه لم يكن له خادم ، فيقوم في كل صباح يعجن العجين ، وينتظر حتى يختمر ، ثم يخبزه ، ثم يتوضأ ويخرج إلى الناس . وكان لا يخرج للناس ليلاً فقد جعل النهار لهم والليل لله ، وكان لا يخرج إلى الناس يوماً في الشهر ، ذلك أنه لم يكن لديه إلا الثوب الذي يلبسه ، فيغسله يوماً في الشهر وينتظر حتى يجف ، فيلبسه ويخرج إلى الناس . وكانت تصيبه غَشية من حين لآخر فيغيب عمن حوله ، ذلك أنه شهد مصرع خبيب وكيف كانت قريش تقطع جسده ولم ينصره فخشي أن لا يغفر الله له ذلك ، فتأخذه غشية .

وهذا البراء بن مالك الأنصاري بطل المسلمين في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب . ولقد اشتد الكرب على المسلمين في الجولات الأولى ، وأخذ أصحاب مسيلمة يدركون سبيل النصر على المسلمين . وأخذ المسلمون يتراجعون عن مواقفهم. وأخذ المسلمون يثبتون بطولات الصبر والجهاد ، مثل ثابت بن قيس حامل لواء الأنصار ، وزيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، وهذا سالم مولى أبي حذيفة ، وآخرون ثبتوا ثبوت الجبال الراسيات أمام هجوم كاسح لمسيلمة الكذاب وجموعه .

وهذا البراء بن مالك الأنصاري ضرب المثل الأعلى في الصبر والجهاد حتى يسّر الله به نصر المسلمين في هذه المعركة الشديدة . فالتفت البراء إلى قومه وقال : يا معشر الأنصار لا يفكر أحد منكم الرجوع إلى المدينة فلا مدينة بعد اليوم ! وخاض المعركة وخاضوها معه حتى زلزلت الأرض تحت أقدام مسيلمة وجماعته ، فلجؤوا يحتمون في حديقة الموت المحصنة بالأسوار .

وهنا طلب البراء بن مالك من قومه أن يضعوه على ترس ثم يقذفوه إلى داخل حديقة الموت .؟ وكان البراء خفيف الجسم ضئيله نحيله .

فرفعوه بالرماح وهو على الترس وألقوه بين آلاف من جنود مسيلمة . فجالدهم جلاداً عنيفاً حتى قتل منهم عشرة ، وفتح باب الحديقة ، ودخل المسلمون وتدفقوا على حديقة الموت في حيطانها وأبوابها وقتلوا منهم قريباً من عشرين ألفاً ووصلوا إلى مسيلمة نفسه فأردوه قتيلا . وحُمِل البراء وبه بضع وثمانون جراحة بين رمية سهم أو ضربة سيف. فحملوه للعلاج وشفاه الله وعافاه ، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً .

وهذا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، نزل معركة بدر مع رسول الله ﷺ وجنود الإسلام من الصحابة الأبرار . وجال جولات أرهبت المشركين حتى هابوه، وأخذوا يَحْذرونه ويتنحّون عنه كلما واجهوه .

ولكن رجلاً واحداً أخذ يبرز لأبي عبيدة ويحاول مواجهته في كل اتجاه يذهب إليه أبو عبيدة ، وأبو عبيدة يتنحّى عن طريقه ويتحاشى لقاءه .

ولكن هذا الرجل لجّ في محاولاته للهجوم على أبي عبيدة ، وأبو عبيدة يتنحى عنه، حتى سدّ الرجل على أبي عبيدة المسالك . ووقف مواجهاً لأبي عبيدة ويحول بينه وبين قتال أعداء الله .

فلما ضاق به أبو عبيدة ذرعاً ، وفشلت كل محاولات تجنبه ، ضربه ضربة بالسيف على رأسه ففلق رأسه فلقتين ، وخرّ الرجل صريعاً بين يديه .

لقد كان هذا الرجل الصريع هو عبد الله بن الجرّاح والد أبي عبيدة بن الجراح. فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك آيات بيّنات :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة :٢٢]

كان أبو عبيدة رضي الله عنه أمين هذه الأمة وكان يجمع مع الأمانة القوة والعزيمة والثبات :

برزت قوة أبي عبيدة يوم أن بعثه رسول الله ﷺ أميراً على جماعة من أصحابه ليتلقّوا عيراً لقريش ، وزوّدهم الرسول ﷺ بجراب من تمر لم يجد لهم غيره . فكان أبو عبيدة يعطي الواحد من أصحابه تمرة واحدة كل يوم ، فيمصها الصحابي ثم يشرب عليها الماء، ويبقى على ذلك يومه كله حتى الليل .

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه أحد العشرة الذين أحاطوا بالرسول ﷺ يوم أحد، ليدفعوا عنه ويدافعوا عنه ، ويذودوا بصدورهم رماح المشركين . ولما انتهت المعركة كان الرسول ﷺ قد كُسرت رباعيته وشجَّ جبينه ودخلت في وجنتيه حلقتان من درعه. فأقبل عليه الصديق يريدَ نزعهما ، فقال له أبو عبيدة : أقسم عليك أن نترك ذلك لي . فكان ذلك . فغض بثنيتّه على واحدة واستخرجها وسقطت ثنيّته . وعض على الأخرى بثنيته الأخرى فاقتلعها وسقطت تنيّته .

وكان أبو عبيدة في بلاد الشام يقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر ، فبلغ الفرات وآسيا الصغرى . وحدث أن دهم بلاد الشام مرض الطاعون الذي آخذ يتفشى. فخاف عليه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، فبعث إليه برسالة تدعوه إليه لحاجة ملحة عنده . فكتب إليه قد عرفتُ حاجتك إليّ . وإني في جند المسلمين ، ولا أجد في نفسي رغبة عما قد يصيبهم . فحلّلني من عزمك وائْذَن لي بالبقاء . وما لبث أن غزا مرض الطاعون أبا عبيدة وتوفّاه الله .

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه غدا إلى المسجد في مكة والمسلمون قليلون مستضعفون ، يقرأ القرآن ويجهر به في المسجد يُسْمِعُ قريشاً آيات الله البينات. وكان المسلمون المستضعفون يخشون فعل ذلك حذراً من إيذاء قريش الشديد. فأتى عبد الله بن مسعود مقام إبراهيم في الضحى ، وقريش حول الكعبة ، فوقف عند المقام وأخذ يجهر بالقرآن الكريم .

فقام رجال قريش إليه وجعلوا يضربونه وهو ماض في تلاوة كتاب الله ، ثم انصرف إلى أصحابه والدم يسيل منه . فقال له أصحابه هذا ما كنا نخشاه عليك . فقال: والله ما كان أعداء الله أهون في عيني منهم الآن . وإن شئتم لأقوم بمثلها غداً .

ولما مرض في خلافة عثمان بن عفان عاده عثمان بن عفان رضي الله عنهما فحدّثه إلى أن قال له : ألا آمر بعطائك الذي امتنعت عن أخذه سنين ؟ قال : لا حاجة لي به ! قال : فلبناتك من بعدك ! قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟

هذه نماذج سريعة من حياة الصحابة نرى فيها قوّة الثبات على الحق والإيمان، وعدم المساومة عليه أو التنازل عنه ، والمضيّ في تبليغ رسالة الله إلى عباده ودعوتهم إلى

الدين الحق الواحد ، دين الإسلام ، وتعهدهم عليه تعهّداً منهجياً، ليصبح منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربيّة - صحبة عمر وحياة لا تتوقف ، صحبة منهجية ، حتى يلقى المسلم ربّه .

وإذا كنا نكتفي بهذه النماذج من حياة الصحابة للإيجاز ، فإن النماذج كثيرة غنية، وينصح المؤمن الصادق بأن يلتزم صحبة منهاج الله صحبة عمر وحياة ، وأن يتدبّر النماذج الغنية القوية من حياة الرسل والأنبياء عليهم صلوت الله ، ومن حياة سيد المرسلين وخاتمهم محمد ﷺ ، ومن دراسة حياة الصحابة الذين أوفوا بالعهد والميثاق، ليكون ذلك كله نموذجاً له ولحياته ، فيبذل كما بذلوا ، ويصبر كما صبروا ، دون أي تنازل او مساومة أبداً .

لذلك نجعل دراسة السيرة النبوية ودراسة حياة الصحابة الأبرار جزءاً من نظرية المنهاج الفردي في نهج **مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن** ، النظرية والنهج اللذين ندعو إليهما على تكاملهما بجميع أجزائهما .



الباب الرابع

قبسات
من منهاج الله

- الفصل الأول : قبسات من الكتاب والسنة حول الابتلاء والصبر.
- الفصل الثاني : قبسات من كتاب الله تحمل التكاليف الربانية والتوجه .
- الفصل الثالث : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات :٥٥] .

الفصل الأول

قبسات من الكتاب والسنة حول الابتلاء والصبر

في كتاب الله وفي سنة رسوله محمد ﷺ نماذج كثيرة يتبين ثبات المؤمن وعدم تنازله أو مساومته . كما يبين الكتاب والسنة أن ابتلاء المؤمنين سنّة ربانيّة ماضية في الحياة الدنيا :

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

[البقرة : ١٥٤-١٥٧]

وأمر الله إلى عباده المؤمنين ثابت في الكتاب والسنة ، جليٌّ بيّن أن عليهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

[البقرة :١٥٣]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ١-٣]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب :٢٢-٢٤]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]

ومن هذه القبسات نرى تأكيد الأمر الإلهي ، أمر الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين على الثبات على الحق ، والصبر على ذلك والمصابرة ، والبقاء في حالة رباط دائم لأهمية الأمانة التي في أعناق المؤمنين ، في عنق كل مؤمن ، وفي عنق الأمة المسلمة الواحدة ، وكل سيحاسب بين يدي الله يوم القيامة .

إنها مسؤولية كبيرة ، وأمانة خطيرة ووضعها الله في أعناق المؤمنين ، وثبّتها الله بالعهد والميثاق :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١]

ونلاحظ هنا في هذه الآية الكريمة أن ذكر النفس جاء مقدّما على ذكر المال. وهذه هي الآية الوحيدة في كتاب الله يرد ذكر النفس أولاً قبل المال . أما في سائر الآيات فيأتي المال قبل النفس :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف : ١٠-١١]

ففي هذه الآية الكريمة من سورة الصف والآيات المماثلة ، جاء النص مبتدئاً بالإنسان نفسه ، فهو الذي يقدّم ، فيقدّم أولاً ماله ثم نفسه . أما في الآية من سورة التوبة فإن النص جاء يُبيّن أن العمل مبتدئ بالله سبحانه وتعالى في عمليّة شراء : إن الله «اشترى» ، ولذلك قدّمت النفس على المال تقديماً يليق باسم الجلالة .

والآيات الكريمة التي تدور حول الجهاد كثيرة ، كلها تقدم المال على النفس ، ما دام المقدّم هو الإنسان ، أما في الآية من سورة التوبة فإن المشتري هو الله سبحانه وتعالى فجاء تقديم النفس على المال .

وقد جعل الله علاقة المؤمنين وجهادهم في سبيل الله عملية شراء بين العبد وربّه ، لتكون أوثق عهداً وأدعى إلى الثبات والبذل ، وإلى عدم المساومة والتبديل والانحراف.

وكان أمر الله إلى عباده المؤمنين أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا وأن لا ينقصوا الميثاق[1] .

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل :٩١-٩٢]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النحل :٩٤-٩٦]

على الداعية المسلم أن يتمثل هذه الآيات الكريمة وهو يخوض تجارب الدعوة وما فيها من ابتلاءٍ وتمحيص ، وقوة وتوجيه وتثبيت ، حتى لا تزلّ قدم بعد ثبوتها ، ولا تسقط في فتنة المساومات وزخرف الإغراءات التي قد ينحرف بها الداعية عن الصراط المستقيم ، ويضعف . ولا يتنازل عن حقٍّ نزل من عند الله . فالله هو وليّ الذين آمنوا، يثبّتهم على الحق المنزَّل من عند الله :

---

(١) يراجع كتاب : «عهد الله والعهد مع الله» للمؤلف .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢]

هذه هي القضية : الثبات على الحق المنزّل من عند الله ، والصبر على ذلك حتى يجعل الله من هذا الثبات هدى وبشرى للمسلمين ، دون أن تفتنهم عن ذلك زخارف المساومات الدنيوية وفتنتها .

ويظل المسلم في حياته الدنيا معرّضاً لمغريات الفتن ابتلاءً من الله ليمّحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء :١٨-٢١]

نعم ! ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك يثبتون على الحق المنزل من عند الله ، ولا يحرفونه ولا يبدلونه ، ولا يساومون عليه .

أما من أَراد العاجلة فتعصف به المصالح الدنيوية والأهواء والفتن والزخارف . فيسقط هنا ، ويفتن هناك ، ويبيع دينه بثمن رخيص .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة :٨]

وها تأكيد للمعنى الذي تكشفه لنا الآية من سورة النساء :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء :١٣٥]

نعم ! هذا هو الثبات ، الثبات على الحق كما جاء من عند الله ، ثبات إيمان وعلم وممارسة ، يرافقه الصبر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء :١٣٦]

إنه الثبات على الحق والصبر على الابتلاء ملتزماً أسس الإيمان المفصَّلة في الكتب المنزلة من عند الله وفي شرعه الذي أراده لعباده ، وفي كتابه العزيز وسنة نبيه المصطفى محمد ﷺ .

والثبات على الحق كما أنزل من عند الله فرض واجب في جميع الحالات التي قد يبتلى بها المؤمن . والثبات على الحق هو ثبات على خصائص إيمانيّة رئيسة .

ولنتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال :٤٥-٤٦]

فالثبات على الحق يبرز في مواجهة قتالية شرعية كميدان عظيم من ميادين الابتلاء. وفي جميع الحالات يجب أن يرافق الثبات في هذا الميدان كما هو في أي ميدان آخر أمور أسياسية : ذكر الله كثيراً ، طاعة الله ورسوله ، أن لا يتنازع المؤمنين حتى لا يفشلوا ، والصبر على الابتلاء ، وأن تكون القلوب كلها متجهة إلى الله مرتبطة به لاجئة إليه ، يرجون الدار الاخرة ولا يسعون وراء فتنة الدنيا وزخرفها تحت شعار الإسلام .

ومن أجل هذه المواقف كلها ، المواقف التي قد يُبْتلى بها المؤمنون ، يجب على المؤمنين الإعداد الحق لأسباب القوة المادية يرهبون بها عدوّ الله وعدوهم والمنافقين المتخفّين .

ولا يَحلّ لمؤمن ولا لجماعة مؤمنة أن لا تثبت على الحق أو تتنازل عنه أو تنحرف ،

إلا أن يكون الأمر متعلّقاً بمؤمن فرد واحد، وقع بين أيدي الكافرين وابتلوه بالتعذيب، فإن لم يستطيع الصبر فله أن يكفر بلسانه ويبقى قلبه مطمئناً بالإيمان :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [النحل :١٠٦-١٠٩]

وفي مسيرة الإيمان ضرب عدد غير قليل من الصحابة رضي الله عنهم أروع النماذج بالصبر على الابتلاء دون أن يكفر، مع شدة الابتلاء بالتعذيب، أو شدة الابتلاء بالترغيب . ولقد رأينا نماذج من ذلك في الفصول السابقة .

والابتلاء، ابتلاء المؤمنين، حق في واقع الحياة، وسنة من سنن الله الثابتة في الحياة الدنيا :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٣٩-١٤٢]

الفصل الثاني

قبسات من كتاب الله تحمل التكاليف الربانية والتوجيه

في الفصول السابقة استعرضنا نماذج من ثبات الرسل على الحق المنزّل من عند الله، الثبات على دينه ورسالته إلى عباده . واستعرضنا نماذج من ثبات الصحابة رضي الله عنهم ، لتكون هذه النماذج قدوة للمؤمنين أمد الدهر ، ولنبيِّن الصورة العملية ، للثبات على الحق ، على دين الله ، دين الإسلام .

وإذا كان هذا الحق المنزل من عند الله تمثّل في واقع الحياة بسيرة الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فإنه يتمثل أيضاً بالمنهاج الرباني - قرآناً وسنة ولغة عربية ، كما أنزل على محمد ﷺ .

ففي منهاج الله توجيهات وتكاليف ربّانية ترسم نهج الدعوة الإسلامية في مسيرة الحياة . وأهم ما يرسمه منهاج الله ويقرره هو وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، وأهم مظاهر الالتزام هو الثبات على الحق البين وعدم التنازل عنه أو المساومة عليه أو الانحراف عنه .

والقبسات من منهاج الله كثيرة ، ولكننا نورد بعضاً منها لتأكيد وجوب التزام الحق المبين في منهاج الله :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف :٣]

إنها آية جليّة بيّنة ترسم النهج كلّه والالتزام كله حتى لا يضِلَّ الإنسان عن درب الهدى والحق . إنها رحمة الله بعباده أن بيّن لهم سبيل النجاة والحق .

وكذلك كان خطاب الله سبحانه وتعالى إلى رسوله محمد ﷺ :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر :٩٤]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة :٦٧]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

[الكهف :٢٩-٣١]

نعم ! وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ... ! إنه الحق المطلق لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه . إنه الحق البيّن الجليّ ، إنه حقٌّ من عند الله منزّل على رسوله الأمين محمد ﷺ .

ليُبَلَّغَ الحقُّ إلى الناس كافة دون تحريف أو تبديل أو مساومات ! يبلّغ كما أنزل من عند الله . وليقرر كلُّ إنسان موقفه من هذا الحقّ ، فمن يكفر به فله جزاء النار ومن يؤمن فجزاؤه الجنّة .

قل الحق كما أُنزل ولا تقبل عليه مساومة أو تحريفاً مهما كانت المغريات لذلك ، فإن جزاء الكفر رهيب ، نار أحاط بهم سرادقها ...! وأنَّ جزاء المؤمن نعيم في جنات الخلد .

إن هذا توجيه لكل داعية مسلم على مرّ العصور . إنه يبلّغ الحقَّ ويرعى الذين آمنوا ويتعهّدهم وهم يريدون وجه الله ، وهم جميعاً في حمى الرحمن ، يصبرون ولا يطيعون أصحاب الأهواء وعُبّاد الدنيا ، ولا يطيع من أغفله عن ذكره واتبع هواه . إنه الحق والثبات على الحق :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف :٢٨]

ويضرب الله لنا مثلاً من محاولات الفتنة والانحراف عن الحق الذي أنزل من عند الله ، بما حدث مع الرسول ﷺ ، فكان التوجيه حاسماً ومنذراً لخطورة الانحراف عن الحق وعظيم الفتنة التي تنتج عنه :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

[الإسراء :٧٣-٧٧]

إنه لأمر خطير جداً أن ينحرف الإنسان عن الحق ، والحق بيّن جليّ ، وبلغت خطورته أن خاطب الله رسوله محمداً ﷺ هذا الخطاب الشديد دون أن ينحرف أو يبدل : « ... **لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** » ، وجاء الخطاب على أشد ما يكون تحذيراً لشدة خطورة الأمر : « **إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** ».

هذا درس شديد لكل داعية ولكلّ مؤمن حتى يرتدع من يوسوس له الشيطان بأن يزيغ . هذا درس ليبقى حملة الدعوة الإسلامية على مر العصور وإلى أن تقوم الساعة أوفياء لعهدهم مع الله امناء في مواقفهم ، لا تفتنهم زخارف الدنيا عن الحق الجلي ، لا مال لا سلطان ، ولا سمعة ، ولا إغراء ولا تهديد . ونعيد هنا حديث رسول الله ﷺ :

فعن كعب بن مالك رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « **ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** » .

[أخرجه أحمد والترمذي][1]

وكما ذكرنا في اكثر من موضع فإن الغاية من الثبات على الحق هو إرضاء الله سبحانه وتعالى أولاً ، ثم المضيّ في تبليغ الدعوة على نقائها وصفائها كما أنزلت من

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم : (٥٦٢٠) .

عند الله للناس كافة على مرّ الأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وكانت وصِيَّة الرسول ﷺ جليّة قوية في هذا الخصوص :

فعن ابن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « **بلّغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج (أي بما يوافق الكتاب والسنة) ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار** »(١)

وتدبّر أيها المسلم هذه الآيات الكريمة من كتاب الله :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٥-١٢٨]

هذا هو نهج الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام وعلى مرّ العصور والأزمان: ادع إلى سبيل ربك ، لا إلى سبيل شياطين الإنس والجن ، وادع بالحكمة والموعظة الصادقة التي تجلو الحق كما أنزل من عند الله ، وجادلهم بالتي هي أحسن بغية هدايتهم وإقناعهم بالحق . ومثل هذه الدعوة قد تتعرض إلى الإيذاء والعدوان ، فإن استطعتم العقاب فعاقبوا المعتدين الظالمين بمثل ما اعتدوا به عليكم، وإن وجدتم الصبر ابتغاء قوة في الحجة والبيان خيراً فاصبروا . واصبر أيها الرسول ولن يضيع صبرك عند الله، ولا تحزن على ما يعتدون به ولا على ما يمكرون فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون بالتزامهم الصادق بما جاء من عند الله ممارسة وبلاغاً وإحساناً .

وهذا أمر الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد ﷺ والذين معه أمر حاسم قاطع :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم (٢٨٣٧) .

السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ . وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
[هود : ١١٢-١١٥]

نعم ! أمر من عند الله حاسم : فاستقم على النهج الذي أنزل إليك ، أنت ومن تاب معك . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا بمساومات وتنازل عن بعض ما أنزل إليك أو تبديل أو تحريف ، فإن مثل هذا الركون إلى الذين ظلموا يجلب عذاب النار وعقاب الله بذلك .

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة فإنها تهزُّ المؤمن وتثير فيه صفاء الإيمان والتوحيد:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩٥]

بيان جليٌّ حاسم لمن يهديه الله ليعرف أمر الله وتكاليفه من خلال منهاج رباني كامل .

وتدبر قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٥]

نعم ! هذا هو الصراط المستقيم والحق القويم وهداية الرحمن الرحيم : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » إنه نهج الدعوة الربانية !

أمر الدعوة إلى الحق المنزّل من عند الله دون انحراف مع ثبات وصبر سنة أرادها الله لا تتبدّل :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ. وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام : ٣٣ـ٣٦]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

[الأنعام :٥٦ـ٥٧]

هكذا ! كلمة فصل حاسمة : «**قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ**» ! والأهواء في واقعنا اليوم كثيرة مضلّة تضغط بشدة . فليقل الدعاة الصادقون : «**قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ**».

ويؤكد الله سبحانه وتعالى هذه القضية في آية بعد آية لخطورة موضوعها وأهميته في مسيرة الدعوة الإسلامية على مر الزمان . ومهما تخفّى بعضهم تحت شعارات مختلفة فإنهم لا يخفون على الله :

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾
[الأنعام :١٠٦]

وكذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام :١١٥-١١٦]

ويضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للفريقين ، فريق اهتدى وفريق ضلّ :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
[الأنعام :١٢٢]

فمن ضل عن سبيل الله ، أو بدّل أو حرّف ، أو ساوم ، أو تنازل ، فمثله كمثل الميّت لا يحييه إلا الإيمان الصادق والحق المنزّل من عند الله نوراً يمشي به في الناس .

وكذلك :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام :١٦١-١٦٣]

وهذا أمره سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾
[يونس:١٠٩]

وفي سورة التوبة يعرض الله سبحانه وتعالى حال فريقين : فريق المنافقين الذين كذبوا وتخلّفوا عن الجهاد ، فكان عذابهم في الآخرة . وفريق هم الثلاثة الذين خُلّفوا

وتأخروا عن الجهاد ولكنهم صدقوا في قولهم ، فعوقبوا بمقاطعة المسلمين لهم فترة وبما هو معروف من قصتهم ، ثم جاء قوله سبحانه وتعالى وأمره :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

[التوبة :١١٩]

لا مع المنافقين الذين نافقوا وكذبوا ولم يعاقبهم الرسول ﷺ .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور :٥١]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » [متفق عليه][١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً** » [رواه مسلم][٢]

وعن العرباض بن سارية قال : « **وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟! قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي . فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً . وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ** »

[أبو داود والترمذي وابن ماجه][٣] .

(١) رياض الصالحين١/ ١٧٠ ص ١٩٣ ج ١ .

(٢) المصدر السابق : ٢/ ١٧٦ ج ١ .

(٣) أبو داود ، ٢٤/ ٦/ ٤٦٠٧ ، الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ ، ابن ماجة : المقدمة ، ٣٥ .

الفصل الثالث

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الذاريات : ٥٥]

لابدَّ أن نؤكّد مرة بعد مرّة ونذكّر مرّة بعد مرّة أن كتاب الله المنزّل من عنده على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن الكريم ، جاء صالحاً لكلّ زمان ومكان وظرف ، وإنها مسؤولية المؤمنين في كل زمن أن يردّوا الواقع الجديد وقضاياه ومشكلاته إلى كتاب الله ويستخرجوا منه الحلول الإيمانيّة لتلك القضايا والمشكلات .

وحتى يستطيع المؤمنون ردّ تلك القضايا والمشكلات إلى كتاب الله ويستنبطوا منه الحلول فلا بد من توافر الأسس اللازمة لذلك . وأولها صدق الإيمان والتوحيد وصفاؤهما حتى يكون الولاء الأول لله وحده ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر لله ورسوله ، ومن هذا الولاء وهذا العهد وهذا الحب تنشأ الموالاة بين المؤمنين جميعا ، موالاة صادقة وأخوة في الله جامعة ، وتنشأ منها كذلك كل عهود يقيمها المؤمنون في الدنيا ، وينشأ منها كذلك كل حبّ ومودَّة بين المؤمنين .

وثاني هذه الأسس أن يكون العلم بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ، علماً قوياً صادقاً ، كلٌّ قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له والذي سيحاسب عليه ، لا قدر وسعه الكاذب الذي يدّعيه لنفسه .

وثالث هذه الأُسس وعي الواقع وعياً صادقاً أميناً ، حتى يمكن رده إلى منهاج الله رداً صادقاً أميناً .

إذا توافرت هذه الشروط في الأمة سهل عليها أن تردّ المشكلات إلى منهاج الله ردّاً أميناً ، وتجد منه الحلول والإجابات وتحديد المواقف ، وسيكون من أسسها الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر . إنها سنة الله الثابتة في الحياة الدنيا مع المؤمنين المتقين .

ولا تتوافر الأسس الثلاثة التي سبق ذكرها إلا إذا قامت في الأمة مدرسة النبوّة الخاتمة ، مدرسة محمد ﷺ ، التي يُفترض أن تمتدّ في حياة الأمة المسلمة الواحدة على

مرّ العصور والأزمان ، تبني وتدفع الأجيال المؤمنة الصادقة ، لتظلّ الأُمة المسلمة أُمّةً واحدة تجمعها رابطة أخوّة الإيمان صافية صادقة ، لا تفرّقها الأوثان والأصنام ، وأطماع الدنيا ومصالحها :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

[الروم: ٣٠-٣٢]

ولكن واقع المسلمين اليوم لا تتوافر فيه هذه الشروط الإيمانيّة والأسس الربانيّة . فالمسلمون اليوم ممزّقون أقطاراً وحدوداً ، ومصالح وأهواء ، وهبّت العصبيات الجاهلية، كلّ يمجّد قُطْره أولاً وثانيا وثالثاً ، وغلبت مصالح الدنيا على النفوس وتنازعتها .

والمجرمون في الأرض ملكوا القوة والسلاح المدمّر المهلك ، والعلم الدنيوي والصناعة ، وشرعوا لأنفسهم نظريات ومبادئ دنيوية مادّيّة بشرية ، كالديمقراطية والحداثة ، والاشتراكية ، والشيوعية ، والعلمانية وأمثال ذلك ، كلها مبادئ مادّيّة من نظرات مادية ومن عقول بشرية ، توهّمت أن هذه المبادئ توفّر لكل صاحب مبدأ مصالحه الدنيوية من خلال قوة مادية وسلطة ، ومن خلال نزاع وحروب مهلكة ملأت الأرض دماراً وفساداً ومصائب لا تكاد تقف عند حد .

أما الإسلام فهــو ليس صناعة بشريّة ، ولكنه وحي من عند الله على رســوله محمد ﷺ، إنه منهج ربّاني يستدعي الالتزام الحق والثبات . إنه منهج يربط الدنيا والآخرة ، ولا يقتصر على الدنيا كسائر النظريات البشرية .

إن كل ما يجري في هذه الحياة الدنيا ، مهما صَغُر أو كَبُرَ ، فهو يجري بقضاء الله النافذ ، وقدره الغالب ، وحكمته البالغة . ويبيّن الله لنا بعضاً من آيات حكمته البالغة . فمن بينها أن الله سنّ سنناً يبْتلى بها الناس والمؤمنين ، ليميز الخبيث من الطيب ، والصادق من المنافق ، ومن يلجأ إلى الله والمؤمنين ، ومن يلجأ إلى المجرمين المفسدين :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

[التوبة : ١٦]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ الم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت :١-٧]

إنها حكمة الله البالغة وقدره الغالب وقضاؤه النافذ ، ماضٍ ذلك كله مع الزمن كله ، آيات بيّنات من رب العالمين .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠-١٤٢]

إنها سنة الله الماضية في الحياة الدنيا في جميع العصور : ابتلاء ، وتمحيص ، حتى تتكشف النفوس ولا يكون لأحد من الناس حجّة في كفر وضلال :

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[النساء :١٦٥]

ويؤكد الله سبحانه وتعالى هذه السنة الماضية في آية كريمة بعد آية كريمة لأهمية القضية وخطورتها في حياة البشرية كلها :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

[محمد :٣١]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة :٢١٤]

هذه هي سنّة الله الماضية ، سنة الله التي يجب أن يعيها المؤمنون في جميع العصور والزمان ، وفي واقعنا اليوم ، ولا يُقبل عند الله عذر لمتفلّت لم يَتُبْ إلى الله قبل مماته .

الموت حق ، والبعث حق ، والساعة حق ، والحساب حق ، والجنّة حق ، والنار حق ، ونسأل الله العفو والعافية والثبات على الحق من عنده ، نسأله ونستغفره ونتوب إليه .

ونعود لنبَيِّن أن واقع المسلمين اليوم يشهد تمزّقهم وضعفهم وإقبالهم الصريح على الدنيا ومكاسبها ، حتى لو كان ذلك تحت شعار الإسلام .

ولقد رأيتُ في مسيرة الحياة مواقف الضعْف والتردّد والانحراف عن النهج الحق، عن الكتاب والسنة . نعلم ونؤكد أن كل بني آدم خطاء ، وأن خير الخطائين التوابون . ونسأل الله أن يكون من سقطوا في الانحراف عن الكتاب والسنة أن يكونوا قد تابوا إلى الله . ولكنها مواقف عسى أن يكون في ذكرها موعظة وخير ، وتذكير ونصح ، وتوبة صادقة قبل مغادرة الحياة الدنيا .

في مؤتمر في باريس - فرنسا ، يضم الألوف من الشباب المسلمين والشابات ، قال أحد الدعاة : إن العلمانية مساوية للإسلام . فالإسلام يحرّم الخمر ، والعلمانية في فرنسا لا تحرمها ، ولكنها لا تفرض عليك شربها ، فالتشريعان متساويان . ولو فطن إلى أن النشأة والبيئة تعلّم شرب الخمر وتفرضه منذ نشأة الطفل في بيته ، وبيئته .

وقال كذلك : إن العلمانية تمنع الزواج من أكثر من واحدة ، والإسلام يبيح الزواج بأربع ، ولكنه لم يفرض ذلك فرضاً ، فالتشريعان متساويان .

لا شك أن هذا هبوط مؤلم ، وجهل كبير ، وفتنة تُلقى في مؤتمر إسلامي يَضمُّ الآلاف .

وفي مؤتمر إسلامي في ستوكهولم في السويد ، قال داعية إننا ندعو إلى الديمقراطية، وأخذ يعدد أهمية ذلك . وبعد أن انتهى قلت له : إن الديمقراطية لها دول تنفق عليها المليارات لتدعو إليها ، والإسلام يبحث عن دعاته ليتحدثوا عنه ويدعوا له ، فما بالك تركت الدعوة إلى الإسلام ، وآلاف الشباب هنا جاءوا ليسمعوا كلمة عن الإسلام. فقال : إننا نريد الحرية والعدالة والمساواة ! فقلت له إذا كنت تعتقد أن الإسلام لا يوجد فيه حرية ولا عدالة ولا مساواة فأعلن ذلك . أَما إذا كان الإسلام فيه حرّية صادقة وعدالة أمينة ومساواة صادقة ، فَلِمَ تخفي ذلك وتجرّد الإسلام منه ، أو تُلصِقُه بالديمقراطية التي شوّهت كلّ هذه المعاني في الأرض . ثمَّ عَدَدْتُ له مآسي الديمقراطية في الكرة الأرضية، فهبّت القاعة كلها بالهتاف : الله أكبر ! الله أكبر . وقدمت له كتابي: « الشورى لا الديمقراطية » . ولكن العجب العجاب أنه بعد عدة سنين ، وقد عاد إلى بلده ، ورزقهم الله الحرية التي حرموا منها سنين طويلة ، فلم يقدرْ نعمة الله وفضله ، وعاد يدعو إلى الديمقراطية بصورة أسوأ من ذي قبل ، ويقول ما معناه : « لن نمنع الشواطئ المختلطة ، ولا السابحات بالبكيني ولن نفرض زيّاً معيناً ، ولن نمنع شارب الخمر والممتنع من شرب الخمر ، كلهم سواء ، إلى آخر ما قاله مثل ذلك .

وداعية كبير يعلن في وسائل الإعلام أَنه لا مانع أن يكون رئيس الدولة المسلمة نصرانيّاً أو امرأة ، والمؤلم أن ينسَب ذلك إلى فقه الإسلام .

وداعية آخر يقول لو أجد امرأة مثل فلانة لرشحتها لتكون رئيسة الدولة الإسلامية.

لقد اخْتَرَقَت العلمانية والحداثة والديمقراطية ، وسائر التصورات البشرية المنحرفة الفكر الإسلامي في بعض القلوب ، فحرفتها عن الصراط المستقيم الثابت في الكتاب والسنة .

والمؤلم في ذلك أن مثل هذه الصيحات المنحرفة المنكرة لم تجد من الموالِيْن لدعاتها المنتسبين إلى الإسلام نصحاً أو توجيهاً ، وإنما ولاء وموالاة تتعارض مع الولاء الأول لله، والعهد الأول مع الله ، والحب الأكبر لله ورسوله .

لقد أصبحت الحزبية هي صورة الولاء والموالاة الواقعيّة بين كثير من المسلمين، فأصبح الولاء الأول للحزب ، فتمزّقت الأمة في ضلالة واسعة مفزعة ، دون أن يشعروا بعظيم الخطر الواقع بالمسلمين .

ومع ذلك ، فإن هذه الموالاة المنحرفة الضالة ، لم توحّد القلوب في الحزب الواحد على الحق ، وإنما نشرت الخلافات والنزاعات والانقسامات في الحزب الواحد ، وكأن هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام في داخل الحزب في سكرة شديدة وغياب وغيبوبة ، حسبهم الشعارات المدويّة .

ويقول داعية آخر في إحدى المجلات الإسلامية يجب على المرأة المسلمة أن تشترك في التمثيل السينمائي لأن المرأة جزء رئيس في « الدراما » ، ولكن يُوصَى المصوّر أن لا يركِّز على مواضع الفتنة والجمال في المرأة أثناء تصوير الفلم السينمائي . ويُفتي في مقابلة تلفزيونية لمن سأل ماذا يتَّبع المسلم إذا وجِدَ في مجتمع فيه ديانات متَعَدّدة ؟ قال أن يتَّبع العلمانية .

وأخذت الفتاوى المنحرفة تتناثر هنا وهناك في الآونة الأخيرة دون أي قيود على المفتين ، ودون الحاجة إلى تقديم الدليل من الكتاب والسنة ، كما هو مقرر في دين الله. فتاوى متناقضة غريبة تجعل المسلم في حيرة واضطراب . ولكن منزلة هذه الفتاوى هبطت .

إن الملاحظة الأولى على مسيرة العمل الإسلاميّ بصفة عامة هو عدم الالتزام بالقاعدة الرئيسة من وجوب تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أنزلت على محمد ﷺ، وتعهدهم عليها تعهداً منهجياً ، حتى تُبنى الأجيال المؤمنة لتكون أُمة ، وحتى تكون كلمة الله هي العليا ، كما كان الحال في مدرسة النبوة الخاتمة التي بنت أمة واحدة ولم تبن أحزاباً .

لقد شُغِل العمل الإسلامي بقضايا كثيرة قذفتها الحياة الغربيّة في قلب المجتمعات الإسلامية ، مثل الانتخابات التي نراها في الغرب ، ونراها في بلادنا حين اتَّبعناها تقليداً دون تمحص ، واتبعنا ما نتج عن هذه الانتخابات وما رافقها من فتن وأساليب لا

يرضاها الإسلام . شُغل المسلمون بقضايا كثيرة مثل هذه ، شغلتهم عن الخط الرئيس وحرفتهم عنه ، خط البلاغ والتعهّد والبناء ، وبناء الجيل المؤمن الواعي الملتزم بالكتاب والسنة إيماناً وعلماً وممارسة وفقهاً ، وبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض .

لقد أصبحنا نقلِّد الغرب العلماني النصراني الصهيوني تقليداً أعمى تحت شعار الإسلام . أصبحنا نقلده في لباسنا وطعامنا وشرابنا وأسلوب حياتنا ، ولم نأخذ عنه الصناعات المتطورة والعلوم المتقدّمة إلا بقدر قليل ، وأخذنا الزخارف كلها والانحرافات كلها .

إن الحرب على الإسلام التي ابتدأت مع ظهور النبي الخاتم محمد ﷺ مازالت ممتدة ومستمرة حتى اليوم . يبدو أنها ستبقى مستقرة إلى أن يشاء الله .

وهذه الحرب ضد الإسلام بدأها المشركون ثم اليهود ثم من والاهم من أهل الكتاب . وفي العصر الحديث تولى كِبر ذلك العالم الغربي العلماني النصراني الصهيوني . ولكنها اليوم حرب تطورت لديهم بأساليبها التي تقوم على دقة التخطيط . أما المسلمون فإنهم اليوم لا يقابلون ذلك بالصد أو النهج أو التخطيط ، وكأن المسلمين في غفوة كبيرة ، تتساقط ديارهم ، وتتدمّر بلدانهم ، وكأنه لا قدرة لهم اليوم على صد ذلك . إن المجرمين في الأرض اليوم يطورون أساليبهم في حربهم هذه مع الزمن ، ويجدّدون عزائمهم وتصميمهم . ولقد أصبحوا يجاهرون بعداء الإسلام دون رهبة أو خوف، وحسبك ما جاء في تقرير مؤسسة « رند « الأمريكية الأخير ، وما جاهروا فيه بأنهم يريدون إسلاماً ديمقراطياً لا علاقة له بالقرآن أو السنة ، وإنما يتوافق مع القيم الغربية. ومن الملفت للنظر أن هذا الإسلام الديمقراطي ، أو الديمقراطية الزاحفة على العالم الإسلامي أصبحت شعار كثير من الدعاة ، وشعار كثير من الساحات . ولقد تكونت حركات جديدة تعلن حربها على الإسلام ، إضافة للحركات السابقة كالنصرانية والصهيونية [(١)] .

وأذكر بالقاعدة التي ذكرتها في كتبي السابقة : « إذا التقى فريقان : فريق له نهجه

---

(١) يراجع كتاب : « إسلام رباني لا إسلام ديمقراطي » للمؤلف .

وخطته المدروسة ووعيه الحقيقي للواقع وأهدافه المقررة ، وفريق ليس له نهج ولا خطة إلا الشعارات يُدوّي بها ، فإن جهود الفريق الثاني الذي لا نهج له ولا خطة تتحول كلها إلى مصلحة الفريق الأول صاحب النهج والخطة » .

أليس هذا الذي يتم في واقعنا ؟!

من أجل ذلك ندعو إلى أن تستيقظ القلوب المؤمنة لتعيش مع كتاب ربها وسنة نَبِيِّها ، ومع وعي الواقع من خلال ذلك ، ومع التزام الحق والثبات عليه ، وإيثار الدار الآخرة على الدنيا ، والأخذ من الدنيا أسباب القوة التي تصدُّ المجرمين وتدفع المؤمنين إلى سبيل الحق ، لتُبنى أمة مسلمة مؤمنة واحدة في الأرض ، ترتبط بالأمة التي بناها رسل الله ، والأمة التي بناها خاتم الأنبياء والمرسلين :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

[المؤمنون :٥٢]

وكذلك :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران :١١٠]

وكذلك :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦]

وهذا خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين يذكرهم بالرسالة التي جاء بها محمد ﷺ ووجوب تبليغها كما أنزلت من عند الله :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٤٤]

ونختم كلمتنا بالآيات التالية نذكر بها أنفسنا والمؤمنين :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨]

فالنصر من عند الله يتنزّل على الأمة المسلمة الواحدة ، فإذا تمزّق المسلمون فمن أين يأتي النصر ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥]

ومتى تقوم الأمة الواحدة إذا تناثرتها الأحزاب ، وكلٌّ يرى نفسه فقط :

كلٌّ يقول أنا الذي فإذا الذي ... ليس الذي ! يا ويل من لم يعدلِ[1]

فإذا كان هذا هو الحال فكيف يكون اللقاء ؟! وكيف تقوم الأمة المسلمة الواحدة ؟!

وإذا لم تَقُمْ في الأرضِ أُمَّةَ أحمدِ ... فكل الذي يجري على الساح ضائع[2]

وفي واقعنا اليوم ، كلما نزلت نازلة فإن الصراخ يعلو ينادون أوروبا وأمريكا وروسيا ومجلس الأمن لنجدتنا ، ولا نرى اللجوء الحق المستديم إلى الله سبحانه وتعالى وحده :

حَتّى إذا حَمِي الوَطيسُ وجَدّ كـ ... ـلّ الجِدّ لا تَلْقى مظنّةُ مَهْزَلِ
صَرَخوا ونَادَوْا يا شُعوبُ تكلّمي ... يا مَجْلسَ الأَمْنِ العَزيزِ فأقْبِلِ
يا دارَ أوْروبا حَنانَكِ ! أشْفقي ... يا دارَ أمْريكا أطلّي واعْجَلي
يا رُوسيا ! هلاّ نظرتُمْ حالَنا ... شعباً يُذَبّحُ بالمدى والمقْصَلِ
والله قال رُوَيْدَكُمْ لا تَرْكَنوا ... للظّالمين ولا لِباغٍ أجْهَلِ

---

(١) قصيدة :واقع المسلمين ص : ١٦٧ من كتاب ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين للمؤلف.

(٢) قصيدة : رسالة المسجد الأقصى ـ المصدر السابق.

هذا الصِّـراطُ المُسْتَقيـمُ أمامَكُمْ	لا يسـتـوي وسَبـيـلُ قـوم مُـيّـلِ
يـتـنَـزَّلُ النـصْر العزيـز على الذيـ	ـن مَضَوا على هذا الصِراط الأكملِ
لَـجَـؤوا إلـى اللـه العَزيـز وأسْلَمُوا	لـلـه أمـرَهُـم عـلـى نَـهْـجٍ جَلـيّ[1]

ولا يحلّ للمسلمين أن يتنازلوا عن شيء من الإسلام مراعاة للمنافقين أو الكافرين. لأن مهمة المسلمين الأولى ، والأمانة التي وضعها الله في أعناقهم أن يبلّغوا الحقّ كما أُنْزِلَ من عند الله . وهذا التبليغ ماضٍ مع الزمن لا ينقطع ، ولا تجوز المساومة عليه أو التنازل عنه ، أو التنازل عن شيء مما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ :

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة :٥٢]

وهذا هو التوجيه الرباني نراه في الآيات التالية :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥ ـ ٥٦]

وكذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
[المائدة :٥٧]

بيان واضح ، وأمر من الله جليّ ، لا مساومة عليه ولا يحق التنازل عنه . وارتبط هذا الأمر بحقيقة التقوى والإيمان . وكأن مخالفته خروج عن التقوى وخروج عن الإيمان.

(١) من قصيدة التصعيد ص :١٨١ من كتاب : ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين للمؤلف .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق :١٣-١٤]

ولنتدبر قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة :٢٢]

ذلك لأن هذا الأمر ومسؤولية المؤمنين عنه عهد وميثاق ، وأمانة وخلافة في الأرض ، وحساب يوم القيامة ، فلا مجال للتفريط في هذا الأمر الرباني .

واسمع هذه الآيات الكريمة وتدبّرها مع الآيات السابقة وما فيها من قول فصل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة :١]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

[الممتحنة : ٤]

نعم ! هذه القضية وحدها هي سبب اللقاء أو التنافر : « **إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** » ! إنها ليست قضية أرض أو وطن أو قرابة.

إنها أكبر من كل هذا . إنها الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له !

ولما تبيّن لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر تبرّأ منه :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤]

إنها القضية الكبرى والحقيقة الكبرى . إنها القضية التي بعث الله لها المرسلين على مرّ الزمان وختموا بمحمد ﷺ . إنها القضية الكبرى التي يقوم عليها الدين كله ، والكون كله .

والدين كلمة جامعة لجميع ميادين الحياة البشرية من اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية وسلم وحرب وغير ذلك . إنها قضية الإيمان والتوحيد ، والاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى ، ولشرعة ودينه الحق ، دين الإسلام . إن التنازل أو المساومة أو الانحراف عن دين الله يؤدي إما إلى نفاق أو شرك أو كفر صريح . ومن الذين يساومون يحملون وجهين :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾
[البقرة : ١٤-١٦]

إن هذا الدين هو دين الله وهو دين جميع الرسل والأنبياء ، دين واحد للبشرية كلها . وهو وحي خالص من عند الله . أما باقي المبادئ التي ينادي بها بعضهم فهي من عند البشر ، فإن أرادوا تحريفها أو المساومة عليها أو تغييرها فذلك كله جهد بشري . أما دين الله فهو من عند الله لا حقَّ لأحد من البشر أن يغير فيه أو يبدّل أو يساوم . شتان بين فكر بشري وصناعة بشرية وبين دين من عند الله وحي من عنده على رسله .

لقد بعث الله رسلهُ وبعث بهذا الدين للناس كافة لإنقاذهم من عذاب يومالقيامة، ومهمة الدعوة الإسلامية تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أُنزلت على

محمد تبليغاً منهجيّاً ، وتعهدهم عليها تعهّداً منهجيّاً ، وإنقاذهم من فتنة الشرك والكفر والنفاق ومن عذاب يوم القيامة . فقد بعث الله المرسلين حتى لا يكون للناس حجة على الله يوم القيامة .

ومن ضرورات الإيمان والتوحيد إيثار الدار الآخرة على الدنيا ، والأخذ من الدنيا ما يعين على بلوغ الآخرة ، وما لا يعيق تبليغ الرسالة والدعوة إليها .

لذلك فإن أي تحريف في هذا الدين الرباني جريمة كبيرة ، جريمة تمسُّ البشرية كلها . وذلك لأن هذا الدين ، دين الإسلام ، يمثل الحقيقة الكبرى في الكون والحياة، ويمثّل القضية الكبرى للإنسان ، ويمثل الباب الوحيد للنجاة عند الله من عذاب يوم القيامة .

ونعتقد أن من أهم الأسباب التي تدعو إلى التحريف أو الخلل في الرأي والفتوى هو ما أصاب اللغة العربية لدى أبنائها المسلمين من ضعف واضطراب وخلل .

فمعظم المسلمين اليوم ، متعلمين وغير متعلمين ، وأدباء وغير أدباء ، لا يتكلمون في حياتهم العامة وأمورهم اليومية إلا باللغة العربيّة العامية ، وليس باللغة العربية الفصيحة ، كما كان المسلمون أيام النبوة الخاتمة في مدرسة محمد ﷺ .

داك أن المجرمين في الأرض ، أعداء الله ، أعداء الإسلام ، مازالوا ماضين في حربهم ضد الإسلام حرباً تتعدد فيها الأساليب ، ويشتد فيها الكيد والمكر ، منذ بدايتها أيام محمد ﷺ . وأخذت في العصور الحديثة أساليب جديدة ومكراً أشدّ وكيداً أقوى، مع تطور الصناعة والأسلحة والعلوم ، التي سُخّرت كلها لمحاربة الإسلام سرّاً وجهراً.

وكان من أوائل الأساليب التي اتّبعوها وأخطرها حربهم على اللغة العربية ، لغة الإسلام والمسلمين ، مستفيدين من ضعف المسلمين أنفسهم ، ومتبعين أساليب تتطور مع الزمن ، فمن نشر اللغات الأجنبية في بلاد المسلمين بالقوة وبكل الأساليب الممكنة، حتى أزيلت اللغة العربية من بعض بلاد الإسلام ، إلا القليل ، وحلّت محلّها اللغات الأجنبية من ناحية أو اللغة العربية العامية من ناحية أخرى ، وخاصة في البلاد العربية.

وأصبحت اللغات الأجنبية واللغة العربية العامية هي لغة المثقفين المتخصصين. فلو دخلت مستشفى من المستشفيات وسمعت حديث الأطباء فيما بينهم مثلاً ، لوجدتهم

يتكلمون الإنكليزية أو العامية ، وحتى العامية يكون نصيبها قليلاً . وترى هذا الوضع في مواقع كثيرة أخرى غير المستشفيات .

وترى كذلك بعض لوحات الإعلانات على المحلات التجارية باللغة الإنجليزية، وإذا وضعوا لها مقابلاً باللغة العربية وضعوها بلفظها الأجنبي لا بترجمتها ، فتظهر بعض الإعلانات بشكل مضحك مزرٍ .

ولما ضعفت اللغة بين أبناء المسلمين أو جهلها بعضهم جهلاً تاماً دون أن يكون هناك نشاط مقابل لتقوية اللغة العربية بين أبنائها المسلمين ، ضعف فهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ضعفاً كبيراً ، حتى تكونت أعداد هائلة لا يتلون كتاب الله أبداً لجهلهم اللغة العربيّة وجهلهم الدين الإسلامي بعامة .

ولما فشا الجهل باللغة العربية وفشا الجهل بالإسلام كثرت الانحرافات في الفكر والسلوك والنشاط في مختلف أوجه الحياة ، ولم يعد النشاط ماضياً على نهج الكتاب والسنة لدى الكثيرين من أبناء المسلمين .

ومن خلال ذلك سَهُل على المجرمين التسلل إلى قلب العالم الإسلامي بكل أنحائه، ينشرون الفتنة بعد الفتنة ، والضلال بعد الضلال ، حتى وهنت الأمة كلها ، وضعفت مقاومتها ، وسهل استسلامها لما ينشر فيها من أفكار ومبادئ مغايرة للإسلام مناهضة له .

وبسبب ذلك سهل على أعداء الله المحاربين لله ورسوله والمؤمنين ، المحاربين للإسلام ، سهل عليهم القضاء على الخلافة الإسلامية ، واعتقال خليفة المسلمين دون أن يكون هنالك أي رد فعل إيجابي غضبة لله ورسوله ، ثم تلا ذلك تمزيق دار المسلمين تمزيقاً شديداً واحتلال أجزائه . والغريب أن صدى ذلك كان في بعض الأقطار الترحيب بالتقسيم والتمزيق والتجزئة ، والترحيب في بعض الأقطار بالغزاة المعتدين ، أعداء الله وأعداء الإسلام ، وصدرت الأناشيد التي تتغنى بهذا التقسيم ، واستمر مخطط المجرمين ماضياً بسهولة كبيرة ، ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، والعالم الإسلامي ماضٍ في ضعفه وغفوته .

إنه لأمر واضح أن المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام كانوا في غفلة كبيرة وهوان كبير وجهل كبير ، ليس لديهم أي خطة أو نهج لحماية دينهم ونصرة ربهم . والأعداء يسيرون على نهج مدروس وكيد منهجيٍّ ومكر شديد .

وإن أكثر ما قام به المسلمون مقابل ذلك الشعارات والصراخ والمظاهرات على صورة عفوية لا تحمل الخطة ولا النهج ، ولا سلامة الإعداد والبناء والاستعداد .

ومضت السنون حتى يومنا هذا على ضعف شديد وغيبوبة أشد ، وإن قام نشاط أو ثورة أو مظاهرات فلم تكن لنصرة دين الله ، ولكن لإعلان الديمقراطية وطلب العدالة والمساواة فيها ، علماً أن العدالة والحرية والمساواة هي أبعد شيء عن الديمقراطية التي لا تحمل إلا الزخرف والتخدير ، وحسبك أن ترى الديمقراطية في بلادهم لتكشف الظلم المخفي بالزخارف ، وتمايز الطبقات في أسوأ صورة ، واستخدام جميع الوسائل المادية لملء الأرض بالحروب ونهب الثروات والاعتداء الظالم على الشعوب الضعيفة المستكينة ، وإباحة الفجور والزنا والفواحش كلها ، والخمور وكلّ ما حرّم الله سبحانه وتعالى .

لقد أصبح الحرام محبباً إلى بعض النفوس ، وأصبحت النفوس تتجاهل ما أمر الله وشدد عليه :

فأين أخوة الإسلام التي تربط المؤمنين جميعاً أمة واحدة صفّاً كالبنيان المرصوص.

أين تطبيق شرع الله ودينه في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي ، حيث أصبح الكثيرون ينادون بالعصبيات الجاهلية التي حرّمها الله تحريماً شديداً .

ومخالفات أخرى كثيرة تحدثنا عنها في بعض كتبنا لنذكِّر بخطورتها ، وإنها لتحتاج إلى إعادة وتذكير ، ونصح صادق كبير ، وتعاون بين الصادقين .

ولا ننسى الحزبيّة التي ساهمت في تمزيق المسلمين ، حيث أصبح الولاء الأول للحزب لا لله ورسوله ، والغضبة للحزب لا لله ورسوله ، وقس على ذلك ما تراه من الانحرافات في ديار المسلمين الممزّقة الممتدة وتكالب الأمم عليهم .

حتى أصبح حالنا ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يوشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة على قصعتها** » . **فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل . وليقذفنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل: يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت »**[1] .

اللهم اهدنا واهدِ بنا وزدنا إيماناً وتقوى !

اللهم أعنا على الثبات على الحق ، على دينك الحق ، دين الإسلام !

الله أعنا على تبليغ رسالتك ودينك إلى الناس وعلى تعهّدهم عليها !

اللهم أجمع كلمة المسلمين ليكونوا أمة واحدة وصفّاً واحداً !

اللهم انصرنا وانصر دعوتك إنك أنت القوي العزيز .

اللهم الله اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتقبّل توبتنا إنك أنت التواب الرحيم .

اللهم أعزنا بدينك ودعوتك ورسالتك !

اللهم أمدنا بقوّة من لدنك وعزيمة !

والحمد لله رب العالمين

(١) سنن أبي داود: كتاب الملاحم: ٣١/ ٥/ ٤٢٩٧. صحيح الجامع الصغير وزيادته: (رقم ٨٠٣٥).

فهرس كتاب
الثبات على الحق
بين الابتلاء والصبر

الموضـــوع	الصفحة
الباب الثالث	
حول الثبات	
على الحق والصبر على الابتلاء	٧٧
ـ الفصل الأول : مع سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ	٧٩
ـ الفصل الثاني : نماذج من صبر الصحابة وثباتهم رضي الله عنهم	٩٥
الباب الرابع	
قبســـــات	
من منهاج الله	١٠١
ـ الفصل الأول : قبسات من الكتاب والسنة حول الابتلاء والصبر	١٠٣
ـ الفصل الثاني : قبسات من كتاب الله تحمل التكاليف الربانية والتوجه	١٠٩
ـ الفصل الثالث : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[الذاريات :٥٥]	١١٧
الفهرس	١٣٣
قائمة الكتب	١٣٥

مؤلفات الدكتور/عدنان علي رضا محمد النحوي

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعة
أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط١
٢	موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط٢
٣	أضواء على طريق النجاة	ط١
٤	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط٤
٥	كيف تلتقي الجماعات الإسلامية	ط١
٦	الموجز الميسَّر عن مدرسة لقاء المؤمنين وبناء الجيل المؤمن	ط٢
ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية :		
٧	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط٦
٨	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط٥
٩	النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط٣
١٠	منهج لقاء المؤمنين	ط٢
١١	لقاء المؤمنين . أسسه وقواعده . الجزء الأول	ط٥
١٢	لقاء المؤمنين . الأهداف . الجزء الثاني	ط٤
١٣	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط٣
١٤	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال . الجزء الأول	ط٢
١٥	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال . الجزء الثاني	ط١
١٦	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال . الجزء الثالث	ط١
١٧	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط١
١٨	الإسلام أركان وبناء . تذكير ونصح	ط١
١٩	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط١
٢٠	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميزها	ط١
٢١	التربية في الإسلام النظرية والمنهج	ط١

الرقم	اســـم الكتـــاب	الطبعة
٢٢	النهج الإيماني للتفكير	ط١
٢٣	عهد الله والعهد مع الله بين التفلت والالتزام	ط١
٢٤	حتى نتدبر منهاج الله	ط١
٢٥	حتى نغير ما بأنفسنا	ط١
٢٦	لؤلؤة الإيمان فريضة طلب العلم ومسئولية المسلم الذاتية (المنهاج الفردي)	ط٢
٢٧	النهج في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٢٨	الموازنة وممارستها الإيمانية	ط١
٢٩	الاختلاف بين الوفاق والشقاق	ط١
٣٠	مواجهة المشكلات والأخطاء والتقصير	ط١
٣١	مصارحة ونصيحة : مراجعات دعوية ووقفات إيمانية	ط١
٣٢	لتكون كلمة الله هي العليا	ط١
٣٣	التجديد في الفكر الإسلامي مفهومه وضوابطه وغايته	ط١
٣٤	إيثار الدار الآخر على الدنيا في قبسات من الكتاب والسنة	ط١
٣٥	إسلام رباني لا إسلام ديمقراطي	ط١
٣٦	إن الدين عندالله الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل	ط١
ثالثاً :كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج للدعوة والبلاغ والبيان:		
٣٧	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط٣
٣٨	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ذ	ط١
٣٩	النية في الإسلام وبعدها الإنساني	ط١
٤٠	النية إشراقة في النفس وجمال	ط١
٤١	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط٤
٤٢	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط٤
٤٣	الخشــوع	ط٢
٤٤	النبي العظيم والرحمة المهداة محمد ﷺ	ط١
٤٥	إشراقة الإيمان والتوحيد	ط١
رابعاً: كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع الإسلامي وأهم أحداثه وتعتبر الملاحم جزءاً من دراسة الواقع:		
٤٦	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٤
٤٧	الشورى لا الديمقراطية	ط٥

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٤٨	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط٣
٤٩	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط١
٥٠	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط٢
٥١	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط١
٥٢	المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط١
٥٣	المرأة بين نهجين الإسلام أو العلمانية	ط١
٥٤	على أبواب القدس	ط٣
٥٥	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط٥
٥٦	فلسطين واللعبة الماكرة !	ط١
٥٧	عبد الله عزام أحداث ومواقف	ط٣
٥٨	حوار الأديان . دعوة أم تقارب أم تنازل	ط١
٥٩	الانحـراف	ط١
٦٠	كيف ضيّعَت الأمانة التي خُلقنا للوفاء بها !؟	ط٢
٦١	حرية الراي في الميدان	ط١
٦٢	هذا هو الصراط المستقيم فاتبعوه !	ط١
٦٣	المسلمون بين الواقع والأمل	ط١
٦٤	تمزق العمل الإسلامي بين ضجيج الشعارات واضطراب الخطوات	ط١
٦٥	الربا وخطره في حياة الإنسان	ط١
٦٦	الدعوة الإسلامية بين الأحزاب والجماعات	ط١
٦٧	هوان المسلمين أمام الواقع وتعدد المواقف والاتجاهات والاجتهادات	ط١
٦٨	العولمة والإسلام	ط١
٦٩	الشريعة والحياة المعاصرة	ط١
٧٠	فقه الاستشهاد في سبيل الله	ط١
٧١	المرأة والأسرة المسلمة والتحديات في واقعنا المعاصر	ط١
٧٢	الإسلام والحرية وحرية المعتقد	ط١
٧٣	المرأة ومساواتها بالرجل ونزولها إلى العمل السياسي	ط١
٧٤	وقفات مع كتاب المسلم مواطناً في أوروبا	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٧٥	الإنسان بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات الدولية	ط١
٧٦	الأمة المسلمة بين الدعوة الإسلامية والأدب	ط١
٧٧	أين معركة ؟! أين ساحة الجهاد ؟! ماذا يجري في فلسطين؟	ط١
٧٨	الأزمة الفلسطينية الداخلية وأبعادها على قضية فلسطين	ط١
٧٩	مع مصطلح (الاختلاط)	ط١
٨٠	رسالة المسجد الأقصى للمسلمين نجوى وشكوى وحنين	ط١
٨١	فلسطين وصلاح الدين	ط١
٨٢	على طريق التحرير وبشائر النصر	ط١
٨٣	بين الارتجال وبين النهج والتخطيط والإعداد والبناء	ط١
٨٤	الثبات على الحق بين الابتلاء والصبر	ط١
خامساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى:		
٨٥	الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته	ط٤
٨٦	الأدب الإسلامي في موضوعاته ومصطلحاته	ط١
٨٧	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط١
٨٨	أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٨٩	أدب الأطفال وأثره في تربيتهم العقدية الصحيحة	ط١
٩٠	التجديد في الشعر بين الإبداع والتقليد والانحراف	ط١
٩١	لماذا اللغة العربية ؟	ط١
٩٢	الحداثة في منظور إيماني	ط٥
٩٣	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط٢
٩٤	الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام	ط١
٩٥	الموجز في دراسة الأسلوب والأسلوبية	ط١
٩٦	الشعر المتفلّت بين النثر والتفعيلة وخطره	ط١
٩٧	تجربتي الشعرية وامتدادها	ط١
٩٨	قراءة في قصيدة مهرجان القصيد	ط١
٩٩	الملحمة بين التصور الإيماني والتصور الوثني	ط١
١٠٠	اللغة العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء	ط١
١٠١	أهم الأخطاء الشائعة اليوم في اللغة العربية	ط٢

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
سادساً : الدواوين الشعرية :		
١٠٢	ديوان الأرض المباركة	ط٦
١٠٣	ديوان موكب النور	ط٤
١٠٤	ديوان جراح على الدرب	ط٣
١٠٥	ديوان مهرجان القصيد	ط٢
١٠٦	ديوان عبر و عبرات	ط١
١٠٧	ديوان حُرقَة الألم وإشراقة الأمل	ط١
١٠٨	درَة الأقصى	ط١
١٠٩	أكثروا ذكر هاذم اللذات . أب يرثي ابنه	ط١
١١٠	ديوان أين الجنى ؟!	ط١
١١١	ديوان حنين وأمل	ط١
سابعاً : الملاحم الشعرية وتعتبر جزءاً من دراسة الواقع وأحداثه :		
١١٢	ملحمة فلسطين	ط٥
١١٣	ملحمة الأقصى	ط٢
١١٤	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط٣
١١٥	ملحمة البوسنة والهرسك	ط٢
١١٦	ملحمة الإسلام في الهند	ط٢
١١٧	ملحمة القسطنطينية	ط٢
١١٨	ملحمة الغرباء	ط٣
١١٩	ملحمة أرض الرسالات	ط١
١٢٠	ملحمة الإسلام من فلسطين إلى لقاء المؤمنين	ط١
١٢١	لهفي على بغداد	ط١
١٢٢	ملحمة سجن أبو غريب ورفح	ط١
١٢٣	ملحمة افغانستان	ط١
١٢٤	ملحمة الطوفان (تسونامي)	ط١
١٢٥	ملحمة التاريخ ! قيام الدول الإسلامية وسقوطها	ط١
١٢٦	ملحمة غزّة مجزرة بين قسوة الحصار ولهيب النار وهول الدّمار	ط١
ثامناً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
١٢٧	خطة الداعية : The Caller's Plan	ط٢
تاسعاً : كتب في علوم أخرى :		
١٢٨	دراسة الموجات الألكترومغناطيسية (باللغة الإنجليزية)	ط١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
عاشراً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
١٢٩	لقاء المؤمنين . الجزء الأول (ترجم إلى اللغة التركية)	ط١
١٣٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (ترجم إلى اللغة التركية)	ط١
١٣١	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (ترجم إلى اللغة الإنجليزية)	ط١
١٣٢	لماذا اللغة العربية (ترجم إلى اللغة الأوردية)	ط١

الرقم	اسم المادة	البيان
أحد عشر : الصوتيات والمرئيات :		
١	أضواء على طريق النجاة	فيديو وكاسيت
٢	لمحة عن واقع المسلمين أمراض وعلاج	فيديو وكاسيت
٣	الإسلام أركان وبناء . تذكير ونصح	فيديو وكاسيت
٤	الأسلوب والأسلوبية	فيديو وكاسيت
٥	درة الأقصى	فيديو وكاسيت
٦	النية والأمانة إشراقة في النفس وجمال	فيديو وكاسيت
٧	حديث النفس بين الدنيا والآخرة	فيديو وكاسيت
٨	التعامل مع مجتمع غير مسلم	فيديو وكاسيت
٩	وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه	فيديو وكاسيت
١٠	قضايا في الأدب الملتزم بالإسلام	فيديو وكاسيت
١١	المسلمون في الغرب بين الإسلام والعلمانية	فيديو وكاسيت
١٢	محاضرة الوصايا والمواعظ	فيديو وكاسيت
١٣	ندوة شعرية . عمان	فيديو وكاسيت
١٤	ندوة شعرية عن فلسطين	فيديو وكاسيت
١٥	ندوة شعرية . جامعة قطر	فيديو وكاسيت
١٦	ندوة شعرية . مؤسسة (مركز) الملك فيصل	فيديو وكاسيت
١٧	محاضرة : وحملها الإنسان	كاسيت

* كتب لمؤلفين آخرين:

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة
١	من ذخائر التراث الإسلامي	الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي	ط١
٢	ملحمة بنت حواء المغربية	الدكتور عبدالرحمن عبدالوافي	ط١
٣	معجم مصطلحات الأدب الإسلامي	الدكتور محمد بن عبدالعظيم بنعزوز	ط١
٤	الإبدال والإعلال دراسة نظرية تطبيقية في قصيدة البردة	الدكتورة منيرة محمود الحمد	ط١
٥	النفخ في الطين قفو الأثر في أسماء السور	الدكتور حسن الأمراني	ط١
٦	قصيدة الإسراء	الدكتور حسن الأمراني	ط٣
٧	ديوان أين الطريق	الأستاذ حسن حمدالله النبالي	ط١
٨	قالت لي أمي - قصة	الأستاذة أفنان سمير الحلو	ط١
٩	كمين في منتصف الليل	الأستاذة منى محمد العمد	ط١
١٠	إدارة المستشفيات والخدمات الصحية -ج١	الأستاذ حزام عقيلان العتيبي	ط١
١١	الأصالة والتجديد في الفكر الإسلامي	الدكتور راشد سعيد يوسف شهوان	ط١
١٢	الشهادة والشهداء في الإسلام	الأستاذ يوسف كامل خطاب	ط١
١٣	رحلتي مع الصحة	الأستاذ نظمي القطب	ط١
١٤	دور المواطن في مواجهة الكوارث والأزمات في عصر المعلومات	الدكتور خالد بن مسفر آل مانعه الغامدي	ط١
١٥	أسعد نفسك	الدكتور يوسف بن محمد ناصر الصاعدي	ط١
١٦	العلاج النفسي في الإسلام عن طريق العبادات	الدكتور يوسف بن محمد ناصر الصاعدي	ط١
١٧	الرزق والإنفاق	الأستاذ محمد هيثم عزت الملقي	ط١

* كتب للنشر والتوزيع:

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبعة
١	مواقف من التاريخ العربي	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط١
٢	موسوعة العالم في صفحات	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط١
٣	موسوعة الـ ١٠٠٠ سؤال في العلم والمعرفة	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب	ط٤
٤	قطروالعالم الإسلامي-حقائق ومعلومات بيئية	الأستاذ سليمان مصلح ابو عزب وآخرون	ط١
٥	بيضة الديك	الأستاذ يوسف الصيداوي	ط١



شركة دار النحوي للنشر والتوزيع المحدودة

هاتف ٤٩٢٤٣٣٩- فاكس ٤٩٣٤٨٤٢

الموقع الإلكتروني : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : daralnahwi@hotmail.com

ص.ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

مطابع الحميضي ت: 2130130 الرياض

مع هذا الكتاب

الثبات على الحق بين الابتلاء والصبـر

إن واقع المسلمين اليوم ، بالإضافة لصور التمزّق التي يعاني منها ، فهناك أمر آخر لا يقل خطورة عن التمزق ، ألا وهو الانحراف الشديد عن الكتاب والسنة ، الانحراف الذي أخذ يشتد في معظم أنحاء العالم الإسلامي ، وكثرة الفتاوى المتناقضة التي لا تحمل علماً ولا حجة من الكتاب ولا السنة ، والجهر بمخالفة أصول الإسلام من دعاة يدوّي صوتهم في الأرض ، وخفت صوت الإسلام الحق ، إما خوفاً من سلطان ، أو رغبة في زخرف من زخارف الدنيا ومتعها ، فإنهم يتلاعبون في النصوص الربانيّة ، ويخرجونها عن مقصودها الربانيّ الجليّ ، ويؤوّلونها على حسب مقتضى الانحراف الذي هم فيه . ويأخذون من أقوال البشر ، من هنا وهناك ، ليفرضوه على واقعنا اليوم ، وعلى المستقبل كأنه الحقُّ المطلق .

فالثبات على الحق يبرز في مواجهة الباطل في الأرض ، ومواجهة قواه ، من خلال ابتلاء كتبه الله على المؤمنين حتى يمحّصوا ، وليعلم الله الصادقين منهم والكاذبين ، فلا يتراجعون ، ولا يساومون ، ولا يغيرون رسالة ربهم ، ولا يهبطون إلى الخوف والضعْف ، وطلب الدنيا ومتاعها ، بل يُصِرّون على طلب الآخرة ورضوان الله . اللجوء الحق الصادق إلى الله سبحانه وتعالى هو باب النجاة الوحيد .

إنّ واجب العلماء المسلمين اليوم أن يوقفوا التبعية الجاهليّة لفكر الغرب وسلطانه ، وأن يكشفوا فساده وإجرامه ، حتى لا تُخْدَعَ به الجماهير المسحوقة وتتوهّم أن النجاة هناك !

إن الله ناصر دينه ، عاجلاً أو أجلاً ، على قضاء لله نافذ وقدر غالب وحكمة بالغة ، ولكنها سنة الله الثابتة في الحياة الدنيا : الابتلاء والتمحيص والصبر ، ثم النصر لمن يثبت على الحق المنزل من عند الله !

ردمك : ٧ - ٠٩ - ٨٠٧٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

مطابع الحميضي ت: 2130130 الرياض